رواية

ميدوروما شون

قطرات الماء

ترجمة: د. أحمد فتحي

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

قطـرات الماء

SUITEKI

للكاتب الياباني

ميدوروما شون

MEDORUMA SHUN

ترجمها عن اللغة اليابانية

د. أحمد فتحي مصطفى

Translated by
Dr. Ahmed F. Mostafa

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL
سنابل للنشر والتوزيع
N.I.F. 80325580-Q

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مدير التحرير
علي حامد

المراسلات:
ص.ب.: 22
الحي المتميز. مدينة 6 أكتوبر
مصر
Tel.:
(202) 835 40 69
Mob.:
(2012) 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com

SUITEKI by Shun Medoruma
Copyright© 1997 by Shun Medoruma
Original Japanese edition published by
Bungeishunju Ltd.
Arabic translation rights arranged with
Shun Medoruma
through Japan Foreign-Rights Centre

قطرات الماء

المؤلف :
ميدروما شون
ترجمة وتقديم :
د. أحمد فتحي

الطبعة الأولى : يوليو 2005
رقم الإيداع:
٢٠٠٥/١١٢٥٢
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977-5634-17-2

حقوق الطبع محفوظة

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

تقديم

في يوم من أيام الحر القائظ في النصف الأول من شهر أغسطس (آب) عام 2004.. هناك في جزيرة "أوكيناوا" التابعة لليابان والتى تقع على مسافة ساعة وخمس وأربعين دقيقة بالطائرة من الجزيرة الأم لليابان "هونشو".. قض سكون المدينة الهادئة الصغيرة "غينوو ان" صوت انفجار رهيب أثار الرعب بين سكانها المسالمين، لم تمر سوى دقائق حتى بدأ ينتشر خبر ذلك الانفجار بين أهل المدينة بسرعة كبيرة.. فقد كان هناك دخان أسود كثيف يرتفع من ناحية تلك البقعة الخضراء التي توجد بها جامعة "أوكيناوا" الدولية.

نعم.. كان ذلك الدخان يرتفع من داخل حرم الجامعة.. لكن السبب لم يكن لانفجار أنبوب غاز أو أسطوانة بوتاجاز أو غيرها من تلك الأسباب المتوقعة، بل كان السبب سقوط طائرة مروحية ضخمة فوق أحد أبنية الجامعة بسبب عطل فني، الأهم في ذلك الأمر أن الطائرة المروحية الضخمة لم تكن تابعة لهيئة مدنية يابانية أو حتى لجيش الدفاع الياباني وإنما كانت طائرة تابعة للقاعدة العسكرية الأمريكية الملاصقة لذلك الحرم الجامعي.

مسألة سقوط الطائرة بسبب عطل فني ما في حد ذاته ربما تؤخذ على أنها أمر عادي تتناوله الأخبار ليوم أو يومين في صفحة الحوادث، لكن هذه الحادثة كانت لها أبعاد مختلفة أيقظت مشاعر كانت قد فترت لدى اليابانيين، وبالذات لدى أهالي جزيرة " أوكيناوا".

القاعدة العسكرية التي أقلعت منها تلك الطائرة المروحية: اسمها "فوتين ما"، وهي قاعدة ضخمة على مساحة واسعة تشغل تقريباً ثلث مساحة مدينة "غينوwan" الملاصقة لعاصمة الجزيرة "ناها". المشكلة الكبرى أن موقع القاعدة غريب للغاية؛ فهو يقع في منتصف المدينة بشكل مستطيل، بحيث إن من يريد التوجه من أحد أطراف المدينة إلى طرفها الأخر بشكل عرضي عليه أن يدور لمسافة طويلة حول القاعدة في مسار على شكل حرف (u) لكي يصل إلى المكان المقصود.. وأحياناً قد يضطر للدوران دائرة كاملة!

وبالإضافة إلى هذه القاعدة هناك عدة قواعد أمريكية أخرى داخل هذه الجزيرة التي يبلغ طولها حوالي مائة وعشرة كيلومترات وعرضها في المتوسط حوالى عشرة كيلومترات، تشغل ربع المساحة الكلية لهذه الجريرة تقريبا. كما تحتل أهم المناطق الإستراتيجية بالجزيرة ومقامة على أجود الأراضي الزراعية خصوبة.

يبلغ تعداد العسكريين الأمريكيين بتلك القواعد أكثر من ثلاثين ألفا بالإضافة الى عائلاتهم.

إن هذا الوجود الأمريكي العسكري المتميز في بتلك الجزيرة الصغيرة "جزيرة أوكيناوا" التي لا يتجاوز تعداد سكانها أكثر من مليون ونصف المليون نسمة، يؤثر تأثيراً نفسياً كبيراً على أهالي الجزيرة، ويجعلهم يعيشون حتى الآن توابع "ما بعد الحرب"، بالرغم من مرور حوالي ستين عاماً على انتهائها، وبالتالي يؤثر في كتابات الأدباء اليابانيين المعاصرين من أبناء هذه الجزيرة سواء بأسلوب مباشرة أو رمزي، وأبرز هؤلاء الكتاب هو الروائي الشاب "ميدوروما شون" الذي نقدمه إلى القارئ العربي من خلال هذه الترجمة.

ونقدم هنا روايتين قصيرتين.. كل منهما تقع في حوالي ستين صفحة، الأولى بعنوان "قطرات الماء (SUITEKI)، والثانية بعنوان "صوت الريح" (FUON).

وقبل الخوض في تفاصيل هاتين الروايتين، وقبل تقديم صورة عن شخصية هذا الكاتب الشاب المبدع، نود أن نفرد بضع صفحات في البداية عن الخلفية التاريخية والسياسية والثقافية لجزيرة "أوكيناوا" حتى يتاح للقارئ فرصة لتفهم أكبر لمضمون الروايتين.

قد لا يعرف الكثير من القراء العرب أن جزيرة "أوكيناوا" هذه تتميز بتفردها الثقافي والبيئي والتاريخي ضمن جزر اليابان المتعددة؛ فهذه الجزيرة لم تكن تابعة لليابان إلا خلال القرن التاسع عشر، وكانت قبل ذلك مملكة اسمها "ريووكيوو" .. مملكة صغيرة في عرض المحيط الهادئ، لها صلاتها التجارية بالصين- وخصوصاً جزيرة تايوان- وكذلك باليابان، ولكن ما يجعل المرء يشعر بشكل واضح باقترابها أكثر للصين عن اليابان من الوهلة الأولى هو طبيعة الطعام الرئيسي المميز لتلك الجزيرة، وهو "الخنزير"، حيث يدخل في معظم أنواع الأطباق الشهيرة المعروضة بها.

كذلك اللغة التي يتحدثها أهل الجزيرة تختلف كثيراً عن اللغة التي يتحدثها أهل الجزر اليابانية الأم، وإن كانت لها جذور مشتركة مع اللغة اليابانية، فحين يتحدث اثنان من أهل الجزيرة معاً لا يستطيع المستمع إليهما من اليابانيين الأصليين تفسير محتوى الحديث.

وأهل تلك الجزيرة، وإن كانت هويتهم السياسية تابعة لليابان الأم، إلا أنهم يتميزون بقوة شخصيتهم القومية وهويتهم الثقافية المختلفة، ويعتدون ويفخرون بها، ويعتبرون أنفسهم مختلفين عن اليابانيين الآخرين، وكذلك العكس، حيث ينظر إليهم اليابانيون على أنهم مختلفين عنهم، ويعود السبب الأساسي في ذلك الإدراك الواضح بالتباين والاختلاف بالإضافة إلى العوامل المذكورة إلى ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وتسبب في نشوء جدار نفسي بين الجانبين من الصعب إزالته حتى الآن.

كانت "أوكيناوا" أثناء الحرب تعتبر خط الدفاع الجنوبي الأول لليابان، ولـذلك ففي الفترة الأخيرة من الحرب كان هناك بالجزيرة ما يربو على المائة ألـف مقاتـل مـن اليابانيين الأصليين الوافدين من الجزر الأم. إن ما نعرفه تماماً نحن العرب عن المأسـاة التي لحقت باليابان في نهاية الحرب يكاد ينحصر في انفجاري القنبلتين الـذريتين فـوق رؤوس سكان مدينتي "هيروشيما" و"ناغاساكي" (وليست "ناجازاكي")، ممـا أودى بحياة عشرات الألوف من مـواطنى هـاتين المـدينتين المنكـوبتين، وعجّـل باستسـلام اليابان للقوات الأمريكية ووقوعها تحت الاحتلال.

لكن ما لا يعرفه معظمنا أن المعركـة البريـة الوحيـدة التـي حـدثت عـلى أرض اليابان كانت في جزيرة "أوكيناوا"، وأن عدد الذين أزهقت أرواحهم مـن عسـكريين ومدنيين في تلك المعركة كان أكبر من عدد ضحايا القنبلتين الذريتين.

حيث تبلغ عدد للقتلى من العسكريين اليابانيين حوالي ثمانين ألفاً، فيما كان عـدد القتلى من المدنيين حوالي مائة وخمسين ألفاً، أي حوالي ربع تعداد سكان الجزيرة وقتها، هذا بالطبع غير عدد الجرحى الذي يفوق هذا الرقم بكثير، ممـا يـوحي ببعـد المأسـاة، حيث كان حوالي نصف تعداد سكان الجزيرة من ضحايا هذه المعركة التـي اسـتمرت حوالي شهرين من أبريل 1945 حتى نهاية مايو من العـام نفسـه . ومـا سـبب الشرخ الكبير بين أهالي الجزيرة وبين اليابان الأم خلال تلك المعركة المأساوية غير المتكافئـة أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضحايا قتلوا بنيران الجنود اليابـانيين أنفسـهم؛ حيـث أجـبروا على الاختباء مـع الجنـود اليابـانيين في الكهـوف والجحـور الطبيعيـة والاصـطناعية، وأجبروا على مصاحبة الجنود اليابانيين في رحلتهم إلى الموت بالانتحار الجماعي، فحين كان الجنود اليابانيون يشعرون بتضييق الخناق عليهم من قبل الجنود الأمريكيين كـانوا يجنحون إلى تفجير أنفسهم مع من معهم من المدنيين من أهالي الجزيـرة. الأمـر الآخـر

الذي كان له تأثير كبير في نفوس أهالي الجزيرة أن بعض الجنود اليابانيين كانوا يقومون بقتل مَن معهم مِن المدنيين خوفاً من الوشاية بهم لدى الجنود الأمريكيين، وكذلك كانوا يقومون بإطلاق النار على الأهالي أثناء الحصار داخل الكهوف إذا تحدثوا معاً بلغة الجزيرة غير المفهومة لدى هؤلاء الجنود.

كما أن الدعاية التي قامت بها الحكومة العسكرية اليابانية في تلك الجزيرة كانت تصور للأهالي أن الأمريكيين سوف يقومون باغتصاب النساء اغتصاباً جماعياً، مما جعل الكثيرات من نساء الجزيرة يلجأن إلى الانتحار هرباً من ذلك العار.

وكان من أشهر تلك الأماكن التي شهدت هذه العمليات الانتحارية جرف عال شاهق يطل على البحر اسمه جرف "هيميه يوري" صار مزاراً سياحياً الآن.

وليس هذا كله مجرد نقل عن ألسنة أهالي الجزيرة الباقين على قيد الحياة، فهناك متحف تذكارى أنيق مطلي باللون الأبيض، يقع فوق ربوة تطل على المحيط الهادئ في "أوكيناوا"، معروض به صور فوتوغرافية مكبرة وأفلام تسجيلية على شاشات كبيرة، وكذلك هناك مجسمات كاملة، مثل متحف كبير للشمع، يصور ما كان يحدث داخل تلك الكهوف والمغارات من مشاهد مروعة حزينة، مما يعنى أن أهل "أوكيناوا" لم ينسوا تلك المشاهدة الحزينة حتى الآن... أو بمعنى آخر فهم يتذكرونها.. وهنا فرق في المعنى بين الكلمتين.

لقد اصطلح الأمريكيون على تسمية كارثة معركة "بيرل هاربور" بـ "تذكر بيرل هاربور" (remember pearl harbor) ولم يطلقوا تعبير "لاتنس بيرل هاربور" (don't forget pearl harbor) حينما دكت الطائرات اليابانية ذلك الميناء العسكري الأمريكي، وقتلت ما يزيد على ثلاثة آلاف جندي.. وكذلك هناك متحف كامل فوق البارجة الغارقة "أريزونا" يذكر دائماً الأمريكيين والسياح بيوم 8 ديسمبر 1941.

ومن هنا كان هناك نوع من التقبل لـدى أهـالي "أوكينـاوا" لحلـول الأمريكـان عليهم بديلاً عن الجيش الياباني. ولكن مع استمرار الوجود الأمريكـي هنـاك بـدأت المشاعر تتغير شيئاً فشيئاً.

لقد انتهى الاحتلال الأمريكي لليابان الأم رسمياً عام 1952 مـع الإبقـاء عـلى الوجود العسكري في عدة قواعد كبيرة ببعض المواقع السـاحلية الإسـتراتيجية مثـل: قاعدة "يوقوسكا" على خليج "طوكيو"، وقاعدة "إيواكـونى" غـرب "هيروشـيما"، وقاعدة "ناغاساكي" بأقصى الغرب في جزيرة "كيووشو"، وغيرها من القواعـد، أمـا الاحتلال الرسمي لجزيرة "أوكيناوا" فقد ظل مستمراً حتى عـام 1971، أي هـذا أن الاحتلال الرسمي للجزيرة استمر ستة وعشرين عاما.

وحتى عام 1971 كان أهالي "أوكينـاوا" يسـافرون بجـوازات سـفر إلى الجـزر اليابانية الأخرى.

ولكن في ذلك العام تمـت إعـادة الجزيـرة رسـمياً إلى الحكومـة اليابانيـة وسـط اعتراضات البعض وترحيب البعض وتحفظ البعض الآخر من أهالي الجزيرة.

ومع ذلك فقد ظل الوجود العسكري الأمريكي المكثف في تلك الجزيرة تحديـداً وحتى هذا اليوم بما يحمله من اسـتفزاز للمشـاعر القوميـة لأبنـاء الجزيـرة، حيـث إن الأراضي التـي كلنـت معظمهـا زراعيـة تـم اسـتقطاعها للقواعـد الأمريكيـة مقلبـل تعويضات بخسة لأصحابها، مع تعطيل وجودها لمشروعات التنمية داخل الجزيرة.

كذلك كانت القواعد الأمريكية الموجودة بتلك الجزيرة نقطة انطـلاق للطـيران الحربي الأمريكي أثناء حرب كوريا في بداية الخمسينيات من القرن المـاضي.. وكـذلك أثناء حرب فيتنام؛ لقربها من تلك المناطق.

وفي أثناء حرب الكويت وحرب العراق كانت تلك القواعد مركزاً لتجميع القوات والمركبات العسكرية والذخائر قبل إرسالها إلى مناطق الحرب في الشرق الأوسط، مما جعل لذلك تأثيراً مباشراً على اقتصاد الجزيرة حيث انخفضت نسبة السياح اليابانيين القادمين من الجزر الأم انخفاضاً كبيراً، وتسبب هذا في إفلاس الكثير من شركات السياحة والفنادق وكل من كانوا يعتمدون على دخل السياحة من قريب أو من بعيد.

ولذلك فإن كابوس نكسة الحرب العالمية الثانية وتوابع تلك النكسة لازالت تؤثر بشكل مباشر وواضح على الجزيرة الصغيرة وأبنائها بالذات، خلافاً لما حدث لجزر اليابان الأم، مما جعل أهالي الجزيرة يؤمنون بأن "أوكيناوا" كانت -ولا تزال- تستخدم دائماً ككبش فداء لليابان الأم.

وقد ظهر الكاتب "ميدوروما شون" هو وآخرون من أبناء تلك الجزيرة ليعبروا بأقلامهم عن هذه المشاعر، و"ميدوروما" نفسه لا يقتصر نشاطه بهذا المعنى على كتابة الروايات فقط بل إنه يعتبر "كاريزما" سياسياً لا يترك محفلاً عاماً إلا ويتحدث صراحة عن تلك المشاعر. فقد قال في إحدى كلماته بمحفل عام ما يلي:

"ترى.. هل "أوكيناوا" هي حجر الشطرنج "الضحية" على لوحة "اليابان"؟ وهل وجودها هذا لا يعني بالنسبة لليابان سوى ذلك الحجر الخاسر الذي يتم تحريكه من خلال إستراتيجية تعلم مسبقاً أنه سيتم ضربه بيد الأعداء؟ إن مجال السياحة الذي يعتبر العامود الفقري لسياحة الجزيرة هو في سبيله إلى الانهيار الآن، وما يعجل بانهياره السريع هو الدعاية التي تقول بأن القواعد العسكرية الأمريكية بالجزيرة قد تكون هدفاً مستقبلياً للإرهاب العالمي".

هذا، ويتوقع هذا الكاتب المزيد من الانهيار الاقتصادي والبطالة وبشكل سريع لجزيرة أوكيناوا، مع استمرار الوجود الأمريكي المكثف بها.

لكن اليابان بدورها كانت -بطرق مختلفة، ولا تزال- تحاول التعبير عن مشاعرها بالاعتذار لأهالي الجزيرة عن العبء الثقيل الذي حملوه على كاهلهم طوال الستين عاماً الماضية، وذلك بإنشاء المشروعات الاقتصادية المختلفة، وتخصيص ميزانيات كبيرة للتنمية والتعمير، في الوقت نفسه الذي يشكو فيه أهالي الجزيرة من المثقفين أن معظم ذلك العائد من تلك المشروعات يذهب إلى الشركات المستثمرة في الجزيرة الأم.

إلا أن كاتباً مثل "ميدوروما شون" بالرغم من كتاباته الثورية وجنوحه في بعض الأحيان إلى الانتقاد المباشر للنظام الإمبراطوري، فقد تم منحه جائزة أحسن رواية على مستوى اليابان عام 1997 وهي جائزة "أكوتاغاوا" للرواية، مما دعم محاولات أهل الجزيرة الأم في التقرب من أهالي هذه الجزيرة وعدم إشعارهم بأحاسيس التفرقة. وعلى العكس مازال "ميدوروما شون" يواصل نشاطه الفكري الجريء من خلال كتاباته ونشاطه الاجتماعي داخل الجزيرة.

"ميدوروما شون":

ولد "ميدوروما شون" عام 1960 في جزيرة "أوكيناوا"، وتخرج في كلية القانون والآداب بجامعة "ريووكيوو" الحكومية بالجزيرة نفسها، وقد حصل عام 1983 على جائزة تلك الجامعة للقصة القصيرة عن روايته "يوميات أسراب السمك".

وحصل على جائزة "أوكيناوا الجديدة" عام 1986 عن روايته المناهضة للنظام الإمبراطوري "سائراً في شارع اسمه شارع الحرية"، وفي عام 1997 حصل على

جائزة "أكوتاغاوا" للرواية عن روايته" "قطرات الماء" التي نقدم ترجمتها هنا، حيث حمل الرقم 117 في سلسلة أعظم كتاب الرواية اليابانيين منذ نشأة هذه الجائزة التي تُمنح مرتين في السنة الواحدة، وحصل على جائزة "كاواباتا ياسوناري" للرواية عن روايته الشهيرة "النفخ في الروح" (MABUIGUMI) عام 2000.

وبعد تخرج هذا الأديب في الجامعة عمل كموظف أمن بإحدى شركات الحراسات الخاصة، ثم صار مدرسًا للأدب الياباني بالمدارس الثانوية حتى وقت قريب، حيث استقال من أجل التفرغ لنشاطه الأدبى والاجتماعي والبيئي.

قطرات الماء:

تبدأ رواية "قطرات الماء" بحكاية لفلاح عجوز من أهالي إحدى القرى بجزيرة "أوكيناوا" -واسمه "طوكوشوه" - يستيقظ من نومه بعد الظهر بعد فترة من الاستراحة من عناء العمل المتواصل بالحقل ليكتشف أن ساقه اليمنى قد تورمت فجأة، وبشكل يثير الفزع.. وأحس بأنه عاجز تماماً عن الحركة وعن الكلام، وكتطور سريع للحالة فوجئ بنافورة للماء تتدفق من الإصبع الكبير لقدمه اليمنى، وتظل قطرات الماء تتساقط من إصبعه لعدة أيام متواصلة، وسط حيرة زوجته ومحاولاتها المستميتة للتفكير في وسيلة لعلاجه. وفي هذه الأثناء تنتشر تلك الإشاعة في القرية، فيتجمع أبناؤها ويشكلون طوابير طويلة أمام منزله من أجل رؤية ذلك المنظر الغريب. ورغم رقوده وعجزه التام عن الحركة إلا أن ذاكرته كانت نشطة ومتنبهة تماماً.

وفجأة، وفي إحدى الليالي يظهر أمام عينيه عدد من الرجال الذين يرتدون البزات العسكرية الممزقة.. وكلهم من الجرحى.. يقفون في طابور أمام فراشه وهم يتناوبون رشف قطرات الماء المتساقطة من قدمه، ولعق إصبع قدمه المتورم المشجوج.

بعد فترة قصيرة من الوقت تذكر وجوههم جميعا.. فقد كانوا كلهـم مـن رفاقـه في السلاح الذين قُتلوا أثناء الغزو الأمريكي للجزيرة في بدايـة صـيف عـام 1945.. وبالذات رفيق طفولته "أيشي مينيه" الذي كان يمثل بالنسبة له كابوساً مزعجاً طـوال كل هذه السنين، حيث كان يؤنب نفسه لتركه يموت وحيداً متـأثراً بجراحـه في ذلـك الكهف الذي كان يختبئ فيه مع عدد كبير من أبناء الجزيرة الذين مات معظمهم هنـاك بسبب القصف المدفعي من الأسطول الأمريكي.

أما ابن عمه " سي يوو" الأكبر منه سنّا والعاطل عن العمل فقـد اسـتغل ذلـك المرض الغريب وصار يعبئ ذلك الماء المتساقط من إصبع ابن عمه في زجاجات ويبيعه لأهل الجزيرة من المرضى بأمراض جلدية وممن أصابهم "الصـلع"، عـلى أن المـاء هـو "ماء المعجزة" الذي يشفي الأمراض الجلدية، ويساعد على نمو الشعر بسرعة كبـيرة، ويكسب بذلك مكاسب هائلة في أيام قليلة.

إلا أنّ مفعول ذلك الماء السحري يختفي بسرعة بمجـرد شـفاء "طوكوشـوه" ليعود على العكس فيصيب من شربه أو مسح به بشرته بتشوهات رهيبـة، فينـال "سي يوو" علقه ساخنة على يد أبناء الجزيرة من المتضررين على قارعة الطريق.

وعلى الجانب الآخر فقد انتهى ظهور تلك الأشباح من أمام "طوكوشـوه" بعـد مواجهة بينه وبين "أيشي مينيه" الذي طمأنه بأنه لا يحمل ضغينة تجاهه بعد أن ارتـوى ظمأه من الماء الذي لعقه من إصبع قدمه.. وهو الذي مات يعـاني مـن الظمـأ بعـد أن تركه "طوكوشوه" وحده ونجا بعمره.

نعم فقد كان شبح "أيشي مينيـه" لا يـزال هـائماً عـلى الخـط الفاصـل بـين عـالم الأحياء والأموات طوال عشرات السنين التي تلـت نهايـة الحـرب، وهـو يعـاني مـن العطش.

وها هو يرحل أخيراً بلا رجعة إلى عالم الأموات بعد أن رواه "طوكوشوه" بماء جسده مكفراً عن ذنبه من خلال ذلك المرض المؤلم ومن خلال تلك الآلام الفظيعة.. أي أن ذلك المرض قد شفع له عند شبح "أيشي مينيه" فتركه لحاله إلى غير رجعة كي يبدأ حياته الطبيعة هادئ البال مرتاحاً. كان هذا رمزاً لنهاية "شبح النكسة" بالنسبة لواحد من أهالي "أوكيناوا" ليغلق بذلك صفحة ذلك التاريخ المؤلم لفترة نهاية الحرب.

صوت الريح :

تتناول الرواية حكاية "جمجمة باكية" كان يصدر منها صفير حزين كلما مرت ريح ساحل المحيط الهادئ من خلال فجواتها وتجاويفها.

وكانت هذه الجمجمة لواحد من الطيارين اليابانيين من مجموعات الفرق الانتحارية في العشرين من عمره، لقي حتفه في غارة انتحارية يائسة على البوارج الأمريكية الزاحفة على خلجان جزيرة أوكيناوا في نهايات الحرب.

ويعود بطل القصة " كيوكيتشى " بالذاكرة بطريقة "الفلاش باك" لعشرات السنوات إلى الوراء إلى تلك الليلة التي ساعد فيها والده على حمل تلك الجثة التي وجدوها على الساحل عند مصب أحد الأنهار إلى أعلى منتصف جرف وممر يطل على الساحل لدفنها في تلك المقبرة القديمة، وسط مخاطرة "كيوكيتشي" بالاحتفاظ بقلم حبر أسود كتذكار من جثة ذلك الطيار وعلى مدى عشرات السنوات، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه إعادة ذلك القلم إلى صاحبه الأصلي في مرقده حتى يتخلص من إحساس الشعور بالذنب الذي ظل يؤرقه طوال تلك السنوات، وفي يوم يواكب تلك الأحداث حطّ على القرية الصغيرة مسئول كبير بإحدى محطات تليفزيون طوكيو اسمه "فوجي آي" جاء يطلب من "كيوكيتشي" مساعدته في الوصول إلى مكان تلك الجمجمة الشهيرة التي تصدر ذلك الصفير الحزين لعمل برنامج وثائقي في ذكرى النكسة.

يعترض "كيوكيتشي" في بداية الأمر على معاونته في تلك المهمة على أساس عدم تدنيس حرمة تلك الجثة وذلك القبر، لكنه يكتشف بعد ذلك أن "فوجي آي" هذا كان زميلاً لذلك الانتحاري صاحب الجثة في فرقة الطيران الانتحارية نفسها، وأنه كان في حقيقة الأمر يريد تأبين ذكرى صديقه والصلاة عليه ونشر قصته على جميع محطات الإرسال باليابان كنوع من التكفير عن الذنب، ولتهدئة روح ذلك الميت كي ترحل مطمئنة عن هذه الدنيا.. فقد كان هو الآخر يشارك "كيوكيتشي" في نقطة العيش ذاتها في كابوس النكسة.. ولكن من زاوية أخرى، حيث إن الحرب انتهت قبل أن يخرج في مهمة انتحارية لحاقاً بزملائه وذلك بساعات قليلة.. فظل يشعر بتأنيب الضمير لبقائه حياً وحده بينما مات زملاؤه وهم في ريعان شبابهم.

إلا أن تلك الجمجمة تسقط في النهاية من أعلى الجرف وسط ملابسات معينة فتتفتت شظايا صغيرة على الصخور قبل أن يتم التصوير وعمل البرنامج، مما يدل على عدم إتمام عملية التأبين وتهدئة تلك الروح.. وبالتالي بقاء شبح النكسة لفترة لا يعلم أحد إلى مدى سوف تطول.

وعدا هاتين القصتين اللتين أقدمهما للقارئ العربي هناك قصص أخرى كتبها هذا الكاتب الروائي بالرمز حول الموضوع نفسه، وهو (آثار النكسة الباقية على أوكيناوا وأهلها) مثل: "النفخ في الروح" و"شجرة أسراب الفراش"، وغيرها من القصص الأخرى.

وقد التقيتُ أنا شخصياً بهذا الكاتب الروائي الشاب الهادئ المتواضع بإحدى غرف الإدارة بجامعة "أوكيناوا الدولية" في شتاء عام 2003، وتحدثت معه لمدة ساعتين حول هاتين الروايتين ومغزاهما وحول نشاطه الأدبي والاجتماعي، واكتشفت خلال تلك المقابلة أنه يقوم بنشاط داخل الجزيرة للدفاع عن قضايا الشرق الأوسط مثل فلسطين والعراق وأفغانستان وأنه متعاطف معها.

وفي ظل حادثة سقوط طائرة الهيلوكبتر الأمريكية وما سيسببه من آثار مستقبلية متوقعة في حركة إذكاء الهوية القومية لأهل أوكيناوا.. فإنني أتوقع له أن يدلي بدلوه في تلك الحركة بشكل نشط من خلال أعمال أدبية أخرى سنقدمها عن قريب للقارئ العربي للتعرف على قضية هامة تأخذ تطوراً خطيراً وسريعاً، وتؤكد أن شبح النكسة "مازال ماردا مختفياً" وليفتح صفحة جديدة في ملف الاحتكاك الياباني الأمريكي الذي يظن الكثيرون انه تم دفنه داخل الأدراج.

د. أحمد فتحي

قطرات الماء

SUITEKI

تورمت الساق اليمنى لـ"طوكوشوه" فجأة حين كان نائماً على فراش بسيط التركيب في الحجرة الخلفية للمنزل هارباً من لفحة شمس الظهر القائظ في الفصل المطير منتصف شهر يونيو.

وحينما تجاوزت الساعة الخامسة بعد الظهر كانت شدة الحرارة قد انكسرت بعض الشيء.. فكان "طوكوشوه" يشعر باستمتاع شديد بالنوم، إلا أن إحساسه بسخونة مفاجئة غير عادية في ساقه اليمنى جعله يفيق. وحين حدق جيداً في ساقه لم يصدق ما رآه.. لقد كانت ساقه من تحت الركبة حتى أخمص القدم متورمة لدرجة أنها كانت تبدو أغلظ من فخذه!

انزعج "طوكوشوه" كثيراً وحاول النهوض بسرعة وهو في حالة من الهلع والانزعاج لكن جسده لم يطاوعه، ولم يستطع حتى أن يصيح طالباً العون. وفي هذه اللحظة شعر بالعرق يسيل على جانبي رقبته.

تخيل في لحظة ما أنه أصيب بنزيف في المخ أو ما شابه ذلك، ولكنه لم يكن يشعر بأي ألم في رأسه أو دوار.. وكان يعي كل ما حوله جيداً. وبينما كان ينظر للسقف وتدور برأسه الأفكار لكي يستوعب الموقف.. كان يشعر في الوقت نفسه بأن ساقه تزداد تورماً شيئاً فشيئاً، وكان جلد ساقه اليمني مشدوداً لامعاً من فرط التورم، وأحس برغبة شديدة في حك ساقه بأظافره التي شعر وكأن قطيعاً من النمل الصغير يزحف فوقها!

ورغم رغبته الشديدة في حك ساقه إلا أن أطراف أصابعه كانت عاجزة تماماً عن الحركة.

مرت نصف ساعة على هذه الحال والهواجس والمخاوف تجثم على صدره دون أن يستطيع حراكاً.

وهنا جاءت زوجته "أوشي" إلى الغرفة لكي توقظه. ولأن حدة الشمس كانت قد هدأت قليلاً.. كان مجيئها إليه كي تدعوه للخروج معها لاستكمال أعمال الفلاحة بالحقل. كانت ساقه اليمنى التي تورمت في ذلك التوقيت قد صارت مثل قطعة الشمام المتوسطة الحجم وأصبح لونها أخضر مائلاً للبياض، وانفرجت أصابعه المنتفخة لتصير في شكل مروحة مفتوحة وكانت تبدو مثل رؤوس ثعابين مختلفة الأحجام! وشعر بقصبة ساقه مدببة مفرودة متفرقة عن بعضها البعض بسبب ذلك التورم في شكل مزرٍ! وهنا أخذت زوجته تهزه بشدة وهي تمسك كتفيه كي توقظه وهي تصيح قائلةً:

"هيا يا رجل.. لقد حان وقت الخروج للعمل.. انهض من رقدتك هذه".

ولكن ما إن أنهت تلك الجملة حتى انزلق رأسه من فوق الوسادة وارتطم بأرضية الفراش بينما كانت الدموع تنهمر من عينيه واللعاب يسيل من فمه.

ظنت المرأة حين شاهدته على هذه الحال أنه يتصنع النوم كعادته ويبدي كسلاً عن القيام للعمل، فعادت تزجره قائلة:

"هيا يا رجل.. انهض بسرعة"!

ثم مدت يدها ولوت أنفه دون رحمة أو هوادة، لكن لم يكن هناك أي رد فعل من ناحيته. ولما بدأت الزوجة ترتاب في الأمر أخذت

تطالع جسده من رأسه حتى أخمص قدميه، ففوجئت بأن ذلــك الــذي كانت تحسبه ثمرة كبيرة من ثمار العجور أو الشــمام، وضــعها هنــا بعض الجيران ونسيها، لم يكن سوى ساق زوجها التي بدت متورمــة بشكل بشع.

شهقت المرأة شهقةً عاليةً وصاحت قائلةً:

" يا للمصيبة.. ماذا حدث لساقك يا رجل؟"

مدت المرأة يدها تتحسس ساقه فوجدتها متكلسةً وبهــا حرارتهــا مرتفعة بعض الشيء، رغم ذلك فقد اكتفت المرأة بزجره قائلةً:

" يا لهذا الرجل الكسول.. أيأتي في هذه الأيام العصيبة فيصــاب بمثل ذلك المرض الغريب".

وصعدت الدماء إلى رأسها واعتراها الغضب حين أدركــت فــي هذه اللحظة أن عليها أن تقوم وحدها بكل العمل هذا اليوم، بــدءًا مــن اقتلاع الأعشاب البرية من الحقل، إلى قطع الأعشــاب النضــرة مــن السهول لكي تجهز العلف الخاص بماعز الجبل. أيقنت "أوشــي" فــي إصرار داخل نفسها أن هذا المرض الغريب الذي ابتلي به زوجها كان ناتجاً عن لهوه ومجونه مع نساء الليل اللاتــي يغنــين ويعــزفن آلــة "الشاميسين" الوترية التقليدية ويضربن الطبول، وهنا، ومن فرط حنقها وغيظها، ضربت قصبة ساقه المتورمة بكف يدها بشدة.

كان صدى الضربة يوحي بقوتها وإصابتها للهــدف، وفــي تلــك اللحظة انفتح ذاتها إصبع قدمه الكبير الذي كان متورماً بالفعل، وفــي اللحظة التالية انفجرت نافورة صغيرة من الماء من بين الظفر واللحم!

وعلى إثر ذلك أصيبت "أوشي" بالذعر والاضطراب.. وبحركة تلقائيــة حملت قدمه تلك وأنزلتها عن الفراش، والتقطت إناءاً زجاجياً تســتقبل بداخله قطرات الماء التي كانت تتساقط في نقاط متتابعــة مــن كعــب قدمه.

أخذ عدد القطرات يتناقص بسرعة، ومع ذلك فقد كان ذلك السائل يتساقط بين وقت وآخر بشكل متقطع.. وكان من الواضح أنها قطرات ماء!

أما "أوشي" التي كانت تتعلق أنظارها بتلك القطرات التي تتقاطر على فترات متقطعة من جزء الجلد المقطوع للإصــبع الكبيــر، فقــد اعتراها شعور غامر بحب الفضول والاستثارة، وفي اللحظــة التاليــة غمست طرف إصبعها في الإبريق الزجاجي ثــم ذاقــت طعــم ذلــك السائل!

أدركت هنا أن ذلك الطعم يشبه تماماً طعم ذلك الســائل المُســكر المذاق ذي اللون الأخضر الفاتح لثمرة الليف!

لم يكن ذلك المذاق مثل مذاق الدم أو العرق أو حتى البــول.. لــم يكن مثل تلك السوائل التي تدل على وجود مرض ما وتخرج من جسد الإنسان، وبينما كانت تلك الأفكار تدور برأسها دفست قدميها في خفها المطاطي وانطلقت نحو العيادة الطبية لكي تستدعي الطبيب.

انتشرت شائعة قدم "طوكوشوه" في القرية كلها في اليوم التــالي. وبحلول الظهر كان هناك طابور طويل من المتطفلين يقف أمام بوابــة البيت بدعوى الاطمئنان عليه وزيارته، حتى وصل طول ذلك الطابور إلى خمسين متراً تقريباً!

لم يظهر طابور طويل مثل هذا في القرية منذ ظهور طوابير الأهالي التي جاءت تسعى للحصول على المعونات الغذائية من الجيش الأمريكي بعد انتهاء الحرب مباشرةً، ولذلك حتى مَن لم يكن له اهتمام بالأمر من أهل القرية، لم يستطع أن يمنع نفسه من الحضور لاستطلاع الأمر والاشتراك في ذلك الطابور.

في البداية خرجت "أوشي" للناس تحييهم وتشكرهم على حضورهم وهي تقدم لهم الشاي الياباني الأخضر وقطع الحلوى، ولما نفدت الحلوى اضطرت للخروج لشراء قطع الآيس كريم لهم.

بعد ذلك ببضع دقائق ظهرت "أوشي" وهي تستشيط غضباً وتمسك في يدها ببلطة تلوح بها في الهواء وهى تصيح قائلة:

"اللعنة.. هل صار زوجي "طوكوشوه" فرجة تتسلون بها"؟

وراحت تقذفهم بالسباب قائلة:

"إنكم لا تعدون أن تكونوا ثلةً من العاطلين المقاطيع.. اغربوا عن وجهنا".

لم يأخذ أهل القرية المجتمعون هنا تهديدها على محمل التهويش فقط، فقد كانوا يعلمون تماماً مدى احتياج "أوشي" إلى زوجها واعتمادها عليه، وأدركوا إمكانية قيامها بفعل طائش والهجوم عليهم ببلطتها تلك، فانتشروا في لحظات يفرون هنا وهناك طالبين النجدة والنجاة بحياتهم!

عندما دخلت "أوشي" إلى البيت واختفت من أمام الناس، بدأت تجمعات أخرى من أهل القرية تتكون تحت ظلال الأشجار الوارفة أمام الجمعية التعاونية، وتحت تندة قصر ثقافة القرية، وحول المقاعد

الخشبية التي تظللها فروع الأشجار أمام ساحة لعبة الـ"جيت بول"، وذلك بطريقة تلقائية غير منظمة أو موجهة، وبدأت الأحاديث تدور والثرثرة خصوصاً مع الذين تجمعوا للدخول إلى البيت ورؤية تلك القدم المتورمة.

دارت الثرثرة حول شكل قدمه ولونها ورائحتها، وعن الجزء المتصلب الجاف منها والجزء الطري، وعن حال أظافره التي تحور شكلها وتبدل، وعن ظاهرة مرض التورم الجزئي الذي انتشر بالقرية منذ سنين مضت، وغيرها من الأمور، وكان مِن الناس مَن وصف ذلك بأنه فأل نحس، ومنهم من قال إنه فأل حسن مبشر، ومنهم مَن تطوع بالقول بأن بتشخيص ذلك المرض وتوقعه أن يستمر ذلك التورم لفترة كذا.. وهنا بدأ الناس يراهنون بعضهم البعض بخصوص تلك التوقعات.

ومع اتساع محور الحديث تحول الكلام عن النتائج الاقتصادية المتوقعة لميزانية القرية من وجود هذه الظاهرة الغريبة، حتى دارت أقداح الخمر بين دوائر المجتمعين وذلك مع حلول الغروب.

ولم يمر وقت طويل حتى أخذت جنبات القرية تصدح بأصوات الغناء الفردي والجماعي وبأصوات عزف آلة "الشاميسين" الوترية التقليدية.. وتطور الأمر إلى بدء حلقات للرقص التقليدي الجماعي على تلك النغمات مع تصفيق الجميع لضبط الإيقاع. ووصل الأمر في النهاية إلى استغلال تلك التجمعات للقيام بالدعاية الانتخابية لانتخابات المجلس المحلي للقرية والتي كانت على الأبواب، فقام أحد المرشحين بذبح بعض الماعز الجبلية وتوزيع لحمها على الحضور، وأرسل ابنه لشراء الخمر من أجل الجميع!

لقد صار الجميع يقشرون ثمار المانجو والأناناس وهي الثمار التي كانت راكدةً بالسوق ولا تجد مَن يقبل عليها ويشتريها، واختلطت تلك الروائح العبقة المسكرة برائحة لحم السمك المعلب ورائحة شرائح سمك الحبار، وأخذ الأطفال يستمتعون بطرقعة أصوات أعواد الغاب وهم يكسرونها لإعداد الوقود، أما النسوة فكان وهج النار الموقدة لسلق القدر الكبير لحساء لحم الماعز يضيء وجوههن.. وانطلق الشباب نحو شاطئ البحر يتأرجحون هناك مع أمواج المد، أما كلاب القرية فكانت تذرع الشوارع والطرقات عدواً ورمحاً هنا وهناك وهي تقبض بفكاكها على عظام ضلوع الخنازير!

أما "أوشي" الغاضبة فقد كانت تراقب تلك المشاهد من نافذتها وهي تلوح بقبضة يدها مهددة متوعدة وهي تقول:

"يا لكم من حمقى ملاعين لا تراعون خوف وأحزانهم الناس"

وبعد ذلك عادت "أوشي" حيث يرقد زوجها بلا حراك، وقامت بتغيير الثلج الذي كانت ترطب به ساقه المتورمة.

أخذت المرأة تنعي حظها وتتألم لحالها، لأنها كانت لا تترك مناسبة دينية بالقرية إلا وتشترك فيها، ولم تتخلف مرة واحدة عن تقديم القرابين لأرواح آلهة القرية وأجدادها إرضاء لها، فصارت تتمتم قائلة:

"لماذا أيتها الآلهة تتخلين عني وتصيبينني بهذا الضرر الذي لا يرضي عدواً أو حبيباً؟".

أما زوجها "طوكوشوه" فقد كان نبضه طبيعياً ولم تكن به سوى حمى طفيفة، وكان ينام هناك بوجه راضٍ ويصدر شخيراً خفيفاً ينمّ عن استمتاعه بالنوم. كانت قدمه اليمنى قد انتفخت لتصير في حجم قطعة كبيرة من العجور، وشعرت المرأة هنا برغبة ملحة في أن

تجرب وتقطع قَطْعاً في ساقه المتورمة لعل السوائل كلها تخرج منهـا، ولكنها حين فكرت في الغيبوبة الواقع فيها زوجها شعرت بخوف وقلق مفاجئين من الإقدام على هذه المغامرة، رغـم أنهـا كانـت معروفـة بجسارتها وشجاعتها.. خصوصاً وأن عيون أهل القرية كلهـم كانـت مركزة عليها وتتابعها.

كانت قطرات الماء المنبثقة من فتحة مقدمة إصبع قدمـه تقطـر بشكل منتظم بمعدل قطرة واحدة كل ثانيتين، وكانت "أوشي" مشـغولة طوال الوقت بتغيير الجرادل التي وضعتها تحـت قدمـه مـن تحـت الفراش لجمع الماء المتساقط منه، وكانت تقذف ذلك الماء بـين وقـت وآخر فوق تربة الحديقة الخلفية للمنزل.

كان طبيب عيادة القرية يدعى "أووشيرو"، وكان فـي منتصـف العقد الرابع من عمره، نحيلاً، حلو الكلام، لطيفاً في التعامل خصوصاً مع المسنين والمسنات من أهل القرية.. ولهذا السبب كانت له شـعبية كبيرة.

جلس الدكتور "أووشيرو" هناك بجانب الفـراش يقـيس ضـغط "طوكوشوه"، بينما لم يستطع إخفاء تعبيرات القلق والاضـطراب عـن وجهه، وقام بأخذ عينات من دمه وكشف عليه بالسماعة الطبية، لكنـه في النهاية لم يستطع أن يشخص هذا المرض أو يضع تفسـيراً لتلـك الظاهرة.

بعد ذلك قام بإسداء النصح إلى الزوجة "أوشي" بأن تدخل زوجهـا مستشفى الجامعة الموجود بالمدينة القريبة من القرية لكي يوضع تحت الفحص المركز، لكنها حين سمعت ذلك ردت عليـه صـائحة بشـكل تلقائي:

"هذا لن يكون".

لقد كانت "أوشي" تصدق كلام رفاقها من المسنين الـذين يلعبـون معها لعبة الـ"جيت بول" والذين حذروها قائلين:

"إذا كان الأمر بشأن المستشفى الجامعي.. فالداخل هنـاك مفقـود والخارج منها مولود".

ولذلك فلم تفلح محاولات الطبيب في إقناعها بالمرة.

وبينما كان الدكتور "أووشيرو" يضع زجاجة صغيرة جمـع بهـا قطرات الماء المتساقطة من كعب "طوكوشوه" في حقيبته الطبية.. كرر على المرأة نصيحته بأن تصطحب زوجها فـي اليـوم التـالي إلـى مستشفى الجامعة لإجراء فحوص مركزة، ووعدها بأن يمـر بصـفة منتظمة للاطمئنان على حاله.. ثم غادر المكان عائداً إلى العيادة.

عاش "طوكوشوه" مع زوجته "أوشي" زهاء أربعين عاماً دون أن يرزقا بأطفال وحدهما وهما يقومان بأعمال الفلاحة، وخلال تلك المـدة الطويلة لم يشعر أي منهما بأن شيئاً ما ينقصه.

حين تأكدت "أوشي" من الطبيب أن حالة زوجها لا تشكل خطورة على حياته، أو على الأصح حين أقنعت نفسها بذلك، قـررت إبقـاءه معها في البيت تحت ملاحظتها لفترة ما، وذهبت مرة أخرى إلى غرفة المخزن لكي تحضر البلطة استعداداً لطرد هـؤلاء المتطفلـين الـذين أثاروا الصخب والبلبلة في القرية.

ومنذ اليوم التالي صار الدكتور "أووشـيرو" يعـود "طوكوشـوه" بمعدل مرتين يومياً لمتابعة حالته. وتخللت تلـك الزيـارات المنزليـة حضور إحدى الممرضات بين وقت وآخر لتغيير زجاجـة الجلوكـوز ولكي تساعد "أوشي" في تغيير ملابس زوجهـا، ولهـذا السـبب فقـد استطاعت "أوشي" أن تجد فترات من الوقت – وإن كانـت قصـيرة– للذهاب إلى الحقل للاطمئنان على الأمور هناك.

وفي عصر اليوم الرابع لتورم ساق "طوكوشوه" جـاء الـدكتور "أووشيروه" ليبلغ "أوشي" بأن نتيجة الفحوصات التي كان قد طلب مـن أحد أصدقائه بالمستشفى الجامعي القيام بها قد ظهرت. جلس الـدكتور "أووشيروه" عند الشرفة الخارجية وصار يزدرد قطع الفجل المنقوعـة في السكر الأسود والتي قدمتها له "أوشي" بينما كان يعرض عليها ذلك التقرير الطبي المفصل بالبيانات والأرقام.

قال لها الطبيب:

"الخلاصة أن ذلك السائل لا يعدو أن يكون بعض الماء وإن كـان به نسبة مرتفعة من ذرات الرمال".

وهنا سألته "أوشي" عن سبب تدفق ذلك الماء من طرف إصـبعه، فرد عليها قائلاً:

"حسن .. إنه أمر لا أستطيع أن أضع له أي تفسير".

وبالرغم من أن الطبيب كان يرسم ابتسامة علـى وجهـه وهـو يجيبها، إلا أن "أوشي" لم تقتنع بذلك ولسان حالها يقول:

"كيف تمارس مهنتك كطبيب وأنـت لا تعـرف تفسـيراً لهـذه الأعراض؟"، لقد كانت تود مهاجمته ومعاتبته.. إلا أنها تحاملت علـى نفسها وقالت له:

"لا يهمني أن تعرف السبب.. لكن الأهم أن تجد وسيلة تمنع بهـا سيلان ذلك الماء بأسرع وقت ممكن".

عاد الدكتور "أووشيروه" ليكرر على مسامعها ما نصح بـه مـن قبل؛ حيث كان يصر على نقله إلى المستشفى الجامعي، وأنه لا بـديل عن ذلك. ولما كانت "أوشي" قد سمعت من بعض عجائز القريـة فـي

الباص السياحي أثناء جولتها معهم لمشاهدة آثار الحــرب فــي رحلــة تابعة لجمعية المسنين، أن العجائز يتحولون إلى فئران للتجــارب فــي ذلك المستشفى، فإنها لم تحتمل الصمت، وأخذت تهمهم وهــي تلملــم الأطباق الفارغة من أمامه قائلة:

"اللعنة.. إنك لا تنفع ولا حتى بقطعة من البراز".

والتقط الطبيب تلك الجملة اللاذعة.. فصاح منزعجاً:

"ماذا تقولين؟".

لكن "أوشي" تحايلت عليه بابتســامة مصــطنعة وشــكرته علــى جهوده. بينما كانت في سريرتها قد قررت الاعتماد على نفســها فــي معالجة زوجها.

كانت "أوشي" تظن في بداية الأمر أن زوجها أصــيب بمــرض "الفيلاريا"؛ ففي طفولتها كانت قد رأت بعض أهــل القريــة يجــرون أقدامهم التي شابهت جذوع أشجار الصنوبر جراً، ورأت بعض الرجال الذين تدلت خصيهم المنتفخة البارزة من سراويلهم وكأنهم مثل خنازير التلقيح. ومن بين هؤلاء جميعاً كان أكثرهم شهرة ذلك العجــوز الــذي يلف القرى والنجوع على دراجته يقوم بإصلاح الأشياء المعطوبة. لقد كانت خصيتاه المنتفختان تشبهان ثمار العجور المفلطح.. حيث كانتــا متصلبتين مثل الحجر، وكان حين يجلس على الأرض يظهر مهارتــه في إصلاح القدور والأواني والمظلات المكسورة.. وكذلك يقوم بســن السكاكين والآلات الحادة، وكــان أطفــال القريــة يتجمعــون حولــه للاستمتاع برؤية شكله الغريب بينما يبرع في أداء عمله بمهارة فائقة.

وحين كان ذلك العجوز ينتهي من العمل كان يقوم بحمل أدواتــه وحمل خصيته الضخمة تلك فوق الدراجة ليتجه إلى القرية المجاورة.

كانت "أوشي" تسترجع في ذهنها شكله من الخلف وهـو يمضـي مبتعداً بجسده الضئيل ومرتدياً ثيابه الممزقة، ثم تترحم على ذكريـات تلك الأيام الخوالي.

كانت "أوشي" تربط بين حال ذلك العجوز وحال زوجهـا الـذي تورمت ساقاه مع تورم خصيتيه، وتشعر بالقلق يتملكها، لكنها عـادت لتطمئن نفسها أن ورم زوجها لم يكن أبداً بتلك الفظاعة.

لم يكن زوجها أصلاً مشعراً بشكل ظاهر.. فقد كان شعر جسـده خفيفاً قصيراً، لكنه بعد أن تورمت ساقاه سقطت حتى تلك الشـعيرات القصيرة، ولم تعد هناك سوى شعيرات لا تكاد تُلمح بالعين المجـردة، بينما تحول لون جلد ساقيه إلى لون أخضر غامق، وكان شكل سـاقيه يكاد يقترب من شكل ثمرة القرع الكبيرة لولا تورم أصابع قدميه بهـذا الشكل الذي يشابه شكل رؤوس ثعابين الحنش المنتشرة بـ"أوكينـاوا"، وكانت قدماه لا تزالان تفرزان قطرات الماء تلك بنفس الانتظـام دون توقف.

جاء رفاق الطبيب الثلاثة إلى المنزل للقيام بفحص ذلك الماء مرة أخرى، لكن "أوشي" لم تسمح لهم بالمرور من عتبة البيـت وطـردتهم شر طردة.

ومع ذلك فلم يظهر على وجه الدكتور "أووشيروه" أي علامـات للامتعاض وهو يزور "طوكشوه" للاطمئنان على حالته. وفي المقابـل لم تكن "أوشي" تفتح فمها بكلمة.. بل إنها على العكس كانت تزيد مـن كمية الفجل المنقوع في السكر الأسود عن ذي قبل.

وهكذا مرت الأيام تباعاً وحالة "طوكوشوه" مستقرة كما هي.. فنبضاته كانت منتظمة، ولم يعد يعاني من الحمى، وكان ينام مستغرقاً طوال الوقت دون أن يكون شخيره عالياً بشكل ملحوظ.

ومع استقرار تلك الحالة صارت "أوشي" تطيل من فترات خروجها إلى الحقل، وكانت أثناء الليل تجهز دلواً كبيراً مقارنة بالدلو الذي كانت تضعه أثناء النهار تحت فراش زوجها، وصارت تنام في غرفتها دون حاجة لملازمة زوجها.

منذ تلك الليلة كان الجنود يقفون بجوار فراش "طوكوشوه"، ورغم استمرار "طوكوشوه" في رقدته بالفراش إلا أنه كان يدري بما يدور من حوله ، إذ يكن غائباً تماماً عن الوعي حتى وإن كان يبدو كذلك في عيون الآخرين، وكان منتبهاً للحوار الذي يدور بين زوجته والطبيب، لكنه لم يكن قادراً على الكلام، ولم يكن بمقدوره أن يوجه التعليمات لزوجته بيديه أو رأسه أو حتى بنظراته.

وشعر بالحزن على نفسه حين خامره شعور بأنه كاد يصير مشلولاً نصفياً وأن عقله كاد يصاب بالبله، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول أن يحتفظ برباطة جأشه، وأن يكون متفائلاً بتماثله للشفاء ولو بعد حين، وكان يشغل وقته بالتفكير في كتابة خطاب للاعتذار لهؤلاء النسوة اللاتي كان يظن أنهن غاضبات منه لغيابه عن زيارتهن.

وفي أحد الأيام حين غابت زوجته "أوشي" عن الغرفة بعض الوقت تفتحت عيناه في تثاقل بسبب شعوره برغبة في حك أطراف أصابع قدمه اليمنى بينما كان يرقد مبتلاً تماماً من السوائل التي تنضح منه، وفي تلك اللحظة شعر بصعوبة في فتح عينيه بسبب الضوء

الباهر للمصباح الفلورسنتي الذي كان مضاءً ليل نهار دون أن يطفأ. لكنه في نهاية الأمر استطاع بالكاد أن يفتح عينيه وأن يحرك رقبته يميناً ويساراً، واستطاع أخيراً أن يخرج زفرة تنم عن شعوره بالألم فعلا صوته صارخاً:

"آه".

وبعدها أخذ يهتف باسم زوجته "أوشي" لكن صوته لم يكن كافياً ليصل إلى الغرفة المجاورة. ومع ذلك لم يستطع أن يكبح شعوره بالسرور لأنه أفاق من غيبوبته، فأخذ يلف رأسه ويدور بعينيه في أرجاء الغرفة.. ولكنه في هذه اللحظة أدرك وجود عدد من الرجال هناك يقفون ملتفين حول فراشه.

كان هؤلاء الرجال الذين يرتدون زياً عسكرياً مهترئاً مبتلاً.. وكأنهم غارقون في ما يشبه ماء البول.. كانوا مطرقي الرؤوس وكأنهم مهمومون بشيء ما يشغل تفكيرهم، يحدقون جميعاً في قدميه. وحين رفع "طوكوشوه" رأسه ليستطلع الأمر رأى جندياً آخر يجلس القرفصاء على الأرض. وكان ذلك الرجل الذي يلف عصابة حول رأسه الحليق الذي لفحته الشمس يمسك بكلتا يديه مفصل قدم "طوكوشوه"، وكان ويتلقى بفمه المفتوح قطرات الماء التي تتساقط من كعبه. وكان يسمع بوضوح صوت حلق ذلك الرجل وهو يبتلع الماء. كان ذلك يحدث بينما كان الرجال الواقفون هناك يزدردون لعابهم.

كان إجمالي عددهم خمسة رجال، ومن بين الواقفين الأربعة كان هناك اثنان منهم يضعان على رأسيهما الخوذات الحديدية، بينما الآخران يبدوان برأسيهما الحليقين المحترقين بأشعة الشمس، ويلفان

الأربطة الطبية حول رأسيهما. أما الرجل الذي يقف قريباً تماماً منه فيربط جبيرة خشبية حول ذراعه اليمنى، فيما كان الرجل الذي يقف خلفه يتكئ على عكاز.. وكانت هناك ساق مفقودة من أسفل الركبة. وأما الرجل الثالث فقد كان صبياً لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة. نصف وجهه الأيمن أسود منتفخاً، وبأعلى صدره العاري أثرغائر مائل لثلاثة جروح كبيرة، وحول فتحات الجروح كانت هناك كتل متجمدة من الدم الذي استحال لونه إلى لون ثمار التوت البنفسجية.

وأما الرجل الرابع فقد كان يبدو من ملامح وجهه المتناسق أنه جندي قادم من اليابان الأم وليس من أبناء جزيرة "أوكيناوا"، ومن النظرة الأولى لم يكن يبدو عليه أي جرح ظاهر، ولكن حين صوّب "طوكوشوه" نظره إلى طرف ياقته لاحظ وجود جرح قطعي ظاهر يغطي نصف رقبته من الخلف.

وأما الرجل الخامس الجالس القرفصاء، والذي كان يبتلع قطرات الماء المتساقطة من كعب "طوكوشوه"، فقد بدأ على حين فجأة في لعق ذلك الكعب.

التوى وجه "طوكوشوه" من الرعب والإحساس بالدغدغة، ولكي يغالب شعوره بفقد صوابه بدأ يدندن بأغنية شعبية من أغنيات راقصات القرية التي كانت تؤدى في مواسم الحصاد.

بعد مرور بعض الوقت ما انتفض ذلك الرجل الذي كان يلعق كعبه واقفاً على قدميه، ثم على الفور جلس الرجل التالي القرفصاء تحت الفراش ليبدأ هو الآخر في ابتلاع قطرات الماء المتساقطة من كعب قدم "طوكوشوه".

عندما انتهى ذلك الرجل من القيام بنوبته في رشف الماء انــتفض واقفاً وعينه لا تتحول عن كعب قدم "طوكوشوه" وكأنــه نــادم علــى التوقف عن الرشف واللعق، لكنه اعتدل في وقفته أمــام "طوكوشــوه" وأدى له التحية العسكرية منحنياً برأسه.. ثم اتجه ناحية اليمين ليختفــي تدريجياً خلال حائط الغرفة.

في نفس التوقيت تقريباً ظهر جندي آخر جديد يدلف مــن خــلال الحائط إلى الجهة اليسرى من "طوكوشوه"، ووقف في آخــر الطــابور ليأخذ دوره.

ذلك الجندي الذي ظهر الآن يجول بعيونه الحائرة المتســائلة فــي أركان الغرفة، وحينما التقت عيناه بعيني "طوكوشوه" الراقد هناك رسم على وجهه المشعر ابتسامة وأومأ برأسه إيماءة خفيفة تحية له.

لقد أدرك "طوكوشوه" في هذه اللحظة أن وجه ذلك الجندي الــذي يناهز الأربعين من عمره لم يكن غريباً عنه.. فقد كانت ملامحه مألوفة لديه. لكنه فشل في أن يتذكر متى وأين التقى به من قبل.

على حين فجأة أصدر ذلك الجندي الشاب أنيناً عالياً ، وكان يربط عصابة طبية حول رأسه، وبعدها بلحظات أخذ يمسح بيده على صدره عند فتحة الجرح في عصبية وكأنه يزيح عنه شيئاً ما، وهنا تســاقطت من فتحة الجرح ديدان كبيرة الحجم تناثرت فوق أرضية الغرفــة. ثــم أخذت تلك الديدان العاجية اللون تتحرك في نشاط وحيوية كي تتســلق الفراش. وهنا أصدر "طوكوشوه" بالكاد صرخة ضعيفة مبحوحة مــن هول الفزع والمفاجأة، ولكن بعد أن تقدمت تلك الديدان زاحفة لمســافة

ثلاثين سنتيمتراً تقريباً تحوّل لونها فجأة إلى اللون الأسود ثـــم تلاشـــت واختفت.

لم يمر وقت طويل حتى انتهى الجندي الثاني من ابتلاع قطـــرات الماء، ثم أدى التحية كالمعتاد لـــ"طوكوشوه" ومال برأسه إلـــى الأمـــام إلى أقصى زاوية إمعاناً في الشكر والامتنان، ثم تحرك ليختفـــي هـــو الآخر من خلال الجدار الذي يقع إلى يمين "طوكوشوه".

ولم يلبث أن ظهر هناك من الحائط الأيسر جندي جديد أخذ مكانه في الطابور.

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى اقترب الفجر.

كان الجنود كلهم صامتين يلتزمون بالهـــدوء والســـكينة ورباطـــة الجأش، كان يبدو جلياً أن إحساسهم في بداية الأمر بتوقع الغدر مـــنهم من ناحية "طوكوشوه" قد زال تماماً.

كانوا كلهم مثخنين بجراح عميقة.. وبالكاد يســـتطيعون الوقـــوف على أقدامهم، وكان "طوكوشوه" يراقب حالهم هذا المبالغ فـــي بؤســـه وتعاسته.. ويرى تتابعهم في أداء التحية له، وانحنـــاءهم أمامـــه فـــي خشوع، واختفاءهم من خلال حائط الغرفة.

وإزاء هذا وذاك صار "طوكوشوه" يشعر ناحيتهم بالشفقة والعطف بعد أن كان خائفاً مرعوباً منهم في بداية الأمر.

كان منهم مَن فقد قدرته على الإبصار، وكان هناك آخر لا يزيـــد عمره على عشرين عاماً مصاباً بجرح قطعي كبير في منتصف رقبته حتى عظمة ترقوته، وكان ذلك الجرح من العمق والخطورة بحيث إنه مع كل زفرة يزفرها كانت فقاعات الدم تتدفق من داخل حنجرته.

حتى ذلك الجندي المصاب بذلك الجرح الجسيم كان حريصاً على رشف الماء المتساقط بكل جد وتركيز، وبعد أن بدأ "طوكوشوه" يتابع عقارب الساعة المعلقة على الحائط، أدرك أن كل واحد من هؤلاء الجنود كان يقوم بنوبة ابتلاع ورشف قطرات الماء لمدة دقيقتين قبل أن يترك الدور لزميله التالي. لقد أدرك "طوكوشوه" أن دقيقتين فقط من الزمن لرشف قطرات من الماء لم تكن كافية لري الظمأ الذي كان يبدو واضحاً جلياً أنهم يعانون منه، وربما كان هذا ما يفسر نظرة الحسرة وعدم الرضاء تلك التي كانت ترتسم في عيون كل منهم وهو ينهض ليغادر الغرفة مغلوباً على أمره بينما يرمق كعب قدم "طوكوشوه" الذي يقطر منه الماء. وبين الحين والحين كان بعضهم يلجأ إلى لعق كعب القدم بلسانه أو إلى مص أصابع قدم "طوكوشوه" مصاً وكان معدل سقوط القطرات في تلك الأثناء أقل من المعتاد. بل إنه كان يحدث كثيراً أن يضطر بعضهم إلى إخلاء مكانه لزميله التالي بسبب استعجال ذلك الزميل المنتظر لدوره وذلك قبل أن تمر دقيقتان كاملتان، وحين يقوم أحد منهم بلعق الكعب أو مص إصبع القدم.. يغمض "طوكوشوه" عينيه وهو يغالب الشعور بالرغبة في الحك. ومع ذلك فمع تكرار ذلك السلوك منهم صار "طوكوشوه" يعتاد هذا الشعور، فكان يدخل في إغفاءات قصيرة بين وقت وآخر.

بحلول الساعة الخامسة فجراً على وجه التقريب لم يعد يظهر هناك من الحائط الأيسر جندي جديد بديلاً عن ذلك الجندي الذي يختفي خلال الحائط الأيمن. وحين بدأت الزرقة تلوح في السماء وينبلج

الصباح.. كان آخر جندي بقي في الغرفة قد انتهى من دوره في رشف قطرات الماء، وأخذ يتكئ على عكازه مترنحاً ليختفي تدريجياً خــلال الحائط.

هز "طوكوشوه" رأسه الخامل وهو يكاد يغيب عن الــوعي، ثــم رمق ساقه اليمنى بعينيه. لقد بدا واضحاً أن التورم الذي اعترى ســاقه قد زال، وأن الماء قد توقف عن السيلان، وهنا صحا "طوكوشوه" مــن غفوته وأفاق، وأحس أن صوته قد عاد إلى قوته وانطلاقــه، وشــعر بالرغبة الآن في الضحك بصوت عال.

في اللحظة التي استجمع فيها كامل قواه لكى ينهض عن الفراش.. شعر بألم رهيب يسري من أطراف أظافره خلال ساقه كلهــا. وفــي اللحظة التالية اندفعت المياه تتدفق من طــرف إصــبع قدمــه الكبيــر كالنافورة.. فأصيب "طوكوشوه" بالإغماء من فرط الصدمة، بينما كان فمه مفتوحاً عن آخره.

كانت ساقه تلك التي أوشكت على العودة إلى حجمها الطبيعي قــد عادت لتنتفخ مرة أخرى مثلما كانت قبل الظهر بقليل.

كانت "أوشي" قد استنفدت كل الوسائل في محاولة علاج زوجهــا، وبعد أن غلب عليها أمرها ذهبت لتزور أكبر سيدة طاعنة في السن في القرية كلها، وسألتها عن طريقة لعلاج آلام السيقان، وجربت كــل مــا نصحتها به تلك العجوز الشمطاء من حيل ووصفات.

فقامت بتجربة منقوع أسماك "بساريا الحقل" مع الديــدان، وســقته عصارة نوع من الأعشاب البرية ينمو فوق صخور ساحل البحر يقال

عنها إنه لو قامت فراشة من الفراشات المشرفة على المـوت بلعقهـا لطارت من فورها تمتلئ نشاطاً وحيوية، كما طلبت من بعض الجيران السعي في سبيل العثور على ترسة البحر حيث قيل لها إن أكل لحمهـا يعين على الشفاء من ذلك المرض. وجربت الأعشاب الطبية المعروفة بشدة مفعولها من شفاء أي مرض.. وجربت الكي بالبخور حتى إنهـا جربت أن ترشف بفمها دم زوجها الفاسد بعد شق قدمه.

كانت "أوشي" تشعر بقلق شديد من أن تنفجر الدماء أو المياه مـن ساقه المتورمة والتي كان جلدها لامعاً منزلقاً بمجرد أن تغـرس فيهـا نصل الموسى، لكنها حين غرست سنه فيها سالت كـرات دم حمـراء نقية تأكدت من صفائها ونقائها بعد أن ملأت بهـا كوبـاً.. فاطمأنـت وتنفست الصعداء حيث كان ذلك عدم يعني وجود تلوث ما. أجل.. لقد اطمأنت إلى عدم وجود دم فاسد هناك.. لكنها كانـت لا تـزل تشـعر بالقلق لعدم تغير حال ساقه عما سبق.

ولما ضاقت بها الحيل اضطرت للتفرغ للصلاة إلى الإله "يوتـا"، وهو من أشهر آلهة الجزيرة، عملاً بنصيحة بعض النسوة الطاعنـات في السن، رغم أن واحدة من هؤلاء النسوة أخذت منها مبلغاً فادحاً من المال لكى تقيم من أجلها الشعائر وأعمال السحر زلفـى لـذلك الإلـه المبروك.. إلا أن ذلك لم ينفع بشيء، فعادت تلـك المـرأة الشـمطاء لتهاجمها وتؤنبها مدعية أن عدم حرصها على الصلاة والدعاء للآلهـة والأجداد وقلة إيمانها وورعها كانا السبب في فشل المحاولة. صـدقت "أوشي" ما قالته لها المرأة الشمطاء المشعوذة وأخذت تنعي حظها وقلة حيلتها ونكرانها وقلة إيمانها بآلهة الجزيرة، وجلست بجانـب زوجهـا

تدعك ساقه براحتها وتنعي حالها قائلة:

"يا لضعفي وقلة حيلتي وعجزي عن شفائك.. يا للوعتي عليك يا عزيزي "طوكوشوه".

حين سمع الرجل كلماتها شعر في تلك اللحظة بأن صدره قد داهمته السخونة وأصيب بالحمى.

منذ ذلك اليوم صار نفس الجنود يزورون "طوكوشوه" بصفة منتظمة. حين تدق ساعة الحائط الثانية عشرة ليلاً، تقوم "أوشي" بتغيير الدلو كعادتها ثم تترك زوجها لتتوجه إلى غرفتها لتنام، بعدها بدقائق قليلة كان هؤلاء الجنود يظهرون تباعاً من خلال الجدار الأيسر للغرفة. وحين تدب تلك الحركة في الغرفة كان "طوكوشوه" يشعر بالحيوية والنشاط في رأسه وعينيه على الفور، وباستثناء اللحظات التي كان خلالها الجنود يقومون بأداء أمامه لتبديل نوبة رشف قطرات الماء، لم يكونوا ينظرون إلى وجهه أبداً، عدا تلك اللحظات القصيرة، فقد كانوا جميعهم يحدقون ملياً في أصابعه بينما يقفون بالكاد وهم يعانون الإعياء من جراء جراحهم البالغة.

أدرك "طوكوشوه" منذ الوهلة الأولى أنهم جميعاً من جنود الجيش الياباني المصابين بجراح خطيرة، وكان ثمانون بالمائة منهم من جنود اليابان الأم وليسوا من جزيرة "أوكيناوا".

كانت أعمارهم متفاوتة، وكان من بينهم شيوخ اشتعلت رؤوسهم شيباً، يبدو عليهم أنهم من أبناء جزيرة "أوكيناوا" الذين تم تجنيدهم كقوات للدفاع عن الجزيرة في أواخر الحرب. كان الحوار بينهم شبه

منعدم، وكانوا جميعاً يقفون صامتين في انتظار دورهم. وكان منهم من يترنح ويوشك على السقوط منهم فيسنده زميله الواقف خلفه أو الواقف أمامه.

شعر "طوكوشوه" بالعناء والتعب من فرط الشفقة عليهم وهو ينظر إلى حالهم، فلجأ في النهاية إلى إغلاق عينيه وتمنى في قرارة نفسه أن يخلد إلى نوم عميق.

وجاء اليوم الثالث منذ أن بدأ ظهور هؤلاء الجنود في هذه الغرفة، وبالتحديد عندما أوشكت تلك الليلة أن تنقضي.

أفاق "طوكوشوه" من إغفاءة خفيفة.. وبينما كان يراقب بعينين واهنتين جندياً منهم وهو يدلف منصرفاً من خلال جدار الغرفة.. إذا بصرخة تفلت من حنجرته رغماً عنه حين لمح وجه ذلك الجندي الذي ينظر في انكسار إلى الأرض وهو يدخل من خلال الجدار المقابل.

صرخ ناطقاً باسم ذلك الجندي:

"إيشي مينيه"!

أجل.. كان "إيشي مينيه " يقف هناك أمام عينيه، ذلك الشاب الصغير الذي دخل معه إلى المدرسة النموذجية بمنطقة "شوري" بالجزيرة دوناً عن شباب الجزيرة كلهم، والذي كان ملازماً له أثناء معركة الدفاع عن الجزيرة خطوة بخطوة بعد أن صار زميلاً له في الفرقة الانتحارية الإمبراطورية، وظهر أمام عينيه الآن تماماً بنفس الهيئة التي كان يبدو بها قبل أن يفارقه للمرة الأخيرة أثناء المعركة.

كان نطاق خصره المخضب بالدماء السوداء يربطه حول جراحه بديلاً عن الضمادة الطبية. أجل.. كان ذلك النطاق يخص "طوكوشـوه" ولكنه كان قد فكه عن خصره وربط به جرح زميله بعد أن أصيب في محاولة يائسة لإنقاذه.

كانت تلك الجبيرة الخشبية حول مفصل قدمه اليمنى المتفككة هي نفسها غصن شجرة الصنوبر الذي قام "طوكوشوه" بنفسه بتثبيته علـى قدمه آنذاك!

رغم أن "إيشي مينيـه" هـذا كـان مـن قريتـه ذاتهـا.. إلا أن "طوكوشوه" التقى به لأول مرة في حياته بعد دخول المدرسة النموذجية مباشرة. وبعد مرور أقل من نصف سنة توطدت بين الاثنـين علاقـة حميمة، حيث كانا يبوحان لبعضهما بأسـرارهما الشخصـية التـي لا يستطيعان أن يبوحا بها لأي زميل آخر.. في الوقت نفسه الـذي كانـا يتبادلان فيه أيضاً المزاح والنكات أوقات الصفاء.

كان"إيشي مينيه" هذا قليل الكلام دؤوباً على المطالعة.. ولذلك فقد كان "طوكوشوه" في معظم الأوقات هو الذي يثرثر بالكلام، ومع ذلـك فردوده القليلة البسيطة كانت تنم عن الحكمة والذكاء.. أجل لـم يكـن ينطق سوى بالمختصر المفيد، وكان "طوكوشوه" فـي المقابـل يقهقـه ضاحكاً بينما كان في الوقت نفسه يشعر في قرارة نفسـه بالإعجـاب. منذ بداية معركة "أوكيناوا"، ومنذ أن تم توزيع الاثنـين علـى الفرقـة الانتحارية الإمبراطورية، كان الاثنان موزعان على الفرق الانتحاريـة الإمبراطورية، وكانا مكلفان بمهمة نقل الأوامر وحمل الذخائر. وكانت الفرقة التي انتمى إليها الاثنان والتي كانت تتـولى حراسـة القطـاع

الأوسط من ساحل الجزيرة وهي المنطقة التي كانت في الوقت نفسه خط النار الأمامي الذي تلقى موجة الهجوم الأولى لمشاة البحرية الأمريكية الذين نزلوا شاطئ الجزيرة وتوجهوا جنوباً، كانت تلك الفرقة قد لاقت مصير الدمار الشامل التام إبان الموجة الثانية لذلك الهجوم، ولم يكن أمام البقية الباقية من شتات الفرقة سوى الانسحاب نحو الطرف الجنوبي من الجزيرة. كان برفقتهم مجموعة من جنود جزر اليابان الأم ينتقلون طول يومهم هرباً من كهف إلى آخر، حتى جاءت تلك الليلة التي تلقى فيها "إيشي مينيه" شظية مباشرة في بطنه من دانة أُطلقتها مدافع الأسطول الأمريكي، ومنذ ساعتها افترق الاثنان عن بعضهما البعض دون أمل في اللقاء مرة أخرى، وذلك عند كهف طبيعي في الطرف الجنوبي للجزيرة.

نهض الجندي الذي كان يرتشف الماء واقفاً على قدميه وأدى التحية كالمعتاد في وقار جم، ثم ذهب ليختفي من خلال الجدار ليتقدم مكانه "إيشي مينه" يجر ساقه اليمنى مستنداً بكلتا يديه على كتف زميله. تقدم خطوتين إلى الأمام ولم يكن يظهر خلفه أحد الجنود. وكان الصباح قد اقترب.

كان "طوكوشوه" حتى هذه اللحظة يغالط نفسه ويحاول تكذيب عينيه رغم إدراكه لما يراه أمامه، ولكن حين مَثَل "إيشي مينيه" أمامه هكذا بشحمه ولحمه، صار يدرك تماماً أن ما يراه أمامه هو الحقيقة بعينها: كان هؤلاء الجنود كلهم هم أنفسهم الذين تُركوا لمصيرهم المحتوم وحدهم داخل ذلك الخندق الصخري الطبيعي على الساحل في تلك الليلة المشئومة.

ها هو الألم يعود فجأة ليسرى في ساق "طوكوشوه" حينما مثل "إيشى مينيه" واقفاً أمامه، وأمسك رأسه بكلتا يديه كي يمنع صرخة كادت تنطلق من حنجرته من شدة الألم. ظل "إيشي مينيه" خلال تلك الأثناء يغض طرفه ويلزم النظر إلى أرضية الغرفة دون أن يطالع وجه زميله.

ودون أن ينطق "طوكوشوه" بحرف أسلم رأسه إلى الوسادة وأغمض عينيه وبدأ "إيشى مينيه" يلف مقدمة قدم "طوكوشوه" بكفيه الباردين ثم فتح فمه بشفتيه الشاحبتين ليبتلع إصبع زميله المتورم، وحين لمس لسانه فتحة جرح ذلك الإصبع سرت رعشة مباغتة مدغدغة من أخمص الإصبع حتى مفصل الفخذ خلال الساق كلها في لحظة واحدة لتشعل ساقه المتحجرة دفعة واحدة. وفي اللحظة التالية انسابت من فمه صرخة مكتومة، وفي اللحظة ذاتها هاجمت أنف "طوكوشوه" رائحة تشابه رائحة العشب الطازج من خلال جسده الهرم العجوز!

في تلك اللحظة دوى في أذنه صوت يصيح قائلاً:

"يا صاحبي.. هل أنت على ما يرام؟".

حين لمحت "أوشي"، وهي تجلس عند طرف الفراش وتمسح بالمنشفة جسد زوجها، ذلك الزائر المفاجئ الذي لم يكن إلا "سى يوو" تحولت قسمات وجهها في لحظة واحدة لترتسم عليها علامة الضجر والتأفف: وهنا زجرته قائلة:

"اللعنة.. ما الذي جاء بك الآن؟".

ورغم كلماتها اللاذعة تلك إلا أن "سى يوو" رَدّ عليها بابتسامة ودودة ارتسمت على وجهه الذي صار أسمر من فرط شرب خمر

الأرز، ثم مدّ يده بلفافة بيضاء بها شيء ما يبدو أنه جلبه من السوبر ماركت ليقدمه لـ"أوشي" ثم صاح قائلاً:

"جئت لعيادة المريض والاطمئنان عليه. خذي هذه اللفافة منى.. إنها هدية".

عندما مدت "أوشي" يدها داخل اللفافة وأخرجت ما بداخلها.. رأت أمام عينها ثمار "البابار" والقثاء المرة، فأدركت بحاستها أن ذلك الرجل سرقها من مكان ما.

"إنني لا أقبل منك شيئاً... فلملم تلك الثمار واغرب عن وجهي"!

من تلك الثمار التي رقدت فوق المنضدة.. ثمار "البابار" التي نضجت عن آخرها وتشققت قشرتها وكادت تهترئ، صارت وفاحت رائحتها اللزجة في أرجاء الغرفة، وفي اللحظة التالية أطلت دودة كبيرة برأسها من القشرة الممزقة وأخذت تزحف خارجة من تلك الثمرة البرتقالية اللون. وهنا التقط "سي يوو" هذه الدودة بأطراف أصابعه وقذف بها من النافذة.. فطارت بعيداً في الهواء وهي تلمع بجسدها الأخضر.

"اللعنة.. من أين سرقت تلك الثمار بحق السماء؟".

"يا أختي.. لقد اشتريتها وجئت بها".

لكن "أوشي" ردت عليه بوجه حانق:

"يا لك من كاذب أخرق".

لكن.. ما كان منه إلا أن وقف متكئاً على إطار النافذة وهو يضحك ضحكة حاول بها استرضاء "أوشى" وامتصاص غضبها، بينما كان يحك رأسه الأصلع بأصابعه.

كان "سي يوو" يبدو وكأنه طعن في السن فجأة خلال هـذا العـام الفائت، وربما كان مظهره هذا هو ما دفع "أوشي" إلى الشعور بالشفقة فجأة على حاله ومنعها من أن تقدم على طرده من الغرفة.

لقد كان "سي يوو" في نفس سن "طوكوشوه"، وكـان ابـن عمـه مباشرة. عاش حياته وحيداً أعزب، وكان بين وقت وآخر يرحل إلـى اليابان الأم لكسب لقمة العيش، وأحياناً أخرى كان يخرج إلـى "ناهـا" عاصمة جزيرة "أوكيناوا" ليعمل باليومية في هذه الحرفة أو تلك، لكنـه كان دائماً يعود إلى القرية قبل موعد رأس السـنة (بـالتقويم القـديم) ليقضي الوقت في المنزل الذي تركه له والداه ليقوم بالعمل في حصـاد قصب السكر باليومية.

لكنه هذه السنة لم يعد إلى القرية كعادته في ذلـك التوقيـت مـن السنة، وهو ما جعل "طوكوشوه" وزوجته يشعران بالقلق عليه، ورغـم هذا فبمجرد أن وقعت عينا الزوجين على وجهه حتى شـعرا بـالقرف والامتعاض قبل شعورهما بالسرور لرؤيته.

وبالرغم من أن الجميع كانوا ينعتونه بلقب "فأر الجحور" لضـعف جسمه ودمامة وجهه، إلا أن أسنانه فقط كانت بيضاء قوية مثل أسـنان الخيل.

وقف هناك أمام الفراش يرمق "طوكوشوه" الراقد أمامـه مملـوءًا بعلامات الفضول والتعجب بينما كان يلبس سروالاً شمر ذيله طبقتين.. وهو ذلك السروال الذي كان يبدو أنـه مـن نفايـات أحـد الجنـود الأمريكيين، وعلى العكس فقد كانت فانلته التي يرتديها فـاخرة عاليـة الجودة ويبدو أنه اشتراها من أحد الأكشاك الموجودة على الشاطئ.

صاحت" أوشي" قائلة في قرف وضجر:

"يالك من متصابٍ أخرق رغم بلوغك السبعين".

كانت "أوشي" تقنعُ نفسها بأن ذلك الرجل هو السبب الرئيسي في فساد سلوك زوجها وغرقه في شرب الخمر ولعب الميسر.

كان "سي يوو" في هذه اللحظة يلف ساقيه بمنشفة كبيرة حين اقترب من الفراش، لكنه نزعها على حين فجأة بيده، وفي اللحظة التالية التقط بتلك اليد منفضة الذباب البلاستيكية وضرب بها بكل قوته ذبابة تقف هناك.

"ماذا تفعل أيها الأحمق أتضرب يدي؟

لا تلمسني بيدك القذرة تلك".

"ماذا تقولين يا أختي.. أخيراً تفعل شراً تجد؟".

"لن يفيدني قلقك عليَّ بشيء... لا تلمسني مطلقاً".

اختطفت "أوشي" المذبة منه ولوحت بها في الهواء تريد ضربه، ففر "سي يوو" منها هارباً إلى زاوية من زوايا الغرفة. من مكانه ذلك استطاع أن يلمح للمرة الأولى وبوضوح ذلك الماء المتسرب من إصبع "طوكوشوه"، أجل .. كان إصبعه الكبير المنتفخ مشقوقاً وكانت هناك قطرات كبيرة من الماء تنزلق من الإصبع على بطن القدم ثم تتساقط من الكعب لتستقر في ذلك الدلو، فصرخ "سي يوو" صائحاً:

"ما هذا الماء؟".

لكن "أوشي" لم تجب عليه بشيء.

كان ذلك السائل المتساقط قطرة بعد الأخرى إلى الدلو يشكل دوائر متتابعة على سطح الماء. كان شفافاً لا لون له، وكان يعطي انطباعاً للناظر إليه بأنه سائل صافٍ أكثر صفاءً من الماء نفسه!

اقترب "سي يوو" بوجهه بدافع الفضول الشديد ليحـــدق فـــي قـــدم "طوكوشوه" وقال متعجباً:

"ماذا يحدث بحق السماء؟".

لكنه في اللحظة التالية لم يشـــعر إلا بصـــوت طرقعـــة المذبـــة البلاستيكية وهي تهوي فوق رأسه. ولم تكتف "أوشي" بذلك بل أخـــذت تركله في مؤخرته وهي تستشيط غضباً وتصيح:

"ابتعد عنه أيها الأحمق".

كان "سي يوو" قد حمل بكلتا يديه ذلك الدلو الذي امتلأ عن آخـــره ومضى به يسير بصعوبة نحو حافة النافذة، وعندما حاول رفع الـــدلو إلى أعلى لكي يقذف بالماء خارج النافذة شعر بصعوبة شديدة في تنفيذ ذلك لثقل وزن الدلو، فعاجلته "أوشي" مرة أخرى بالصياح والصـــراخ قائلة:

"نحن في غنى عن خدماتك، فكف عن هذا"!

أحس "سي يوو" هنا بعدم جدوى ما يحاول القيام به من مســـاعدة تلك المرأة العجوز فصار يتكئ بعضديه على إفريز النافذة مغلوباً على أمره ويتأمل الماء المنسكب هناك على أرض الحديقة.

كانت الأعشاب البرية المتكاثفة المتشابكة تغطي الحديقة الخلفيـــة للبيت، وقد أدرك من النظرة الأولى أن "أوشي" بالرغم من اشـــتهارها بالحيوية والنشاط وحب العمل، لم تعد تستطيع متابعة العناية بالحديقـــة وتنظيفها. كان سور الشجيرات المحيط بالحديقـــة والبيـــت عشـــوائياً، والزهور الحمراء اليانعة في تلك الشـــجيرات تـــتلألأ تحـــت الســـماء الزرقاء الصافية. وهناك وسط الأغصان المتشـــابكة لمـــح زهـــرتين

صفراوين يانعتين لم يتبين من شكلهما إذا ما كانتا من ذلـــك النـــوع أو الآخر من فصائل الشمام.

وبينما كان "سي يوو" مســتغرقاً ومـــأخوذا بهـــاتين الزهـــرتين الصفراوين الكبيرتين راوده خاطر مفـــاجئ. أجـــل.. رغـــم أن تلـــك الأعشاب البرية أو تلك الأغصان الباسقة من سياج الشجيرات كانـــت متكاثفة بسبب تركها دون عناية ورعاية... وبالتالى كان نموها وطولها غير طبيعى.. إلا أن شدة تلك الكثافة وتلك الأطوال والأحجـــام كانـــت تتجاوز الأحجام العادية التي اعتاد رؤيتها، وهذا مما جعله يشـــك فـــي تأثير تلك المياه التي تسكبها "أوشى" بين وقت وآخر خارج النافذة، فقد كانت البقعة الموجودة تحت النافذة مباشرة مـــن أكثـــر البقـــاع كثافـــة للأعشاب مقارنة بباقي أجزاء الحديقة. أجل.. كانت الرقعـــة الواســـعة التي تحيط بتلك الرقعة العالية الكثافة تنمو بين الأعشاب البرية بشـــكل متفرق وغير متكاثف الدرجة، وكانـــت قصـــيرة الارتفـــاع، كمـــا أن شجيرات السياج كان يبدو من شكلها أن "أوشي" قامت بتقليمها منذ فترة ليست بالبعيدة. وبينما كان العجب يستولى عليه مما يشـــاهده، إذا بـــه يسمع صراخ "أوشي" الهستيرى "يداهمه" مرة أخرى من الخلف:

"إذا لم تكن لك حاجة هنا الآن فلتتصرف عنا".

عندما التفت خلفه رأى "أوشـــي" هنـــاك تقـــف أمـــام المروحـــة الكهربائية وهي توجه إليه نظراتها النارية المتأججة.

"يا أختي.. ألم تشاهدي مدى كثافة تلك الأعشاب والشجيرات؟".

لكنه أدرك من قسمات وجهها أن كلماته تلك لـــم تزدهـــا ســـوى سخونة وحنقاً. كان "سي يوو" يدرك تماماً أن تكاثف وعشـــوائية تلـــك الأعشاب البرية في الحديقة كان يعني بالنسبة لـــ "أوشى" عاراً كبيـــراً،

وحرجاً عميقاً، وتشكيكاً في قدرتها على العناية ببيتها، فبدأ يفاوض المرأة العجوز وهو يحرص كل الحرص على انتقاء كلماته حتى لا يزيد غضبها:

"يا أختي الكبيرة.. ألا تستأجرينني لكي أقوم بمساعدتك في نزع الحشائش وفلاحة الحقل؟ إنني مستعد للمشاركة في مساعدتك في تمريض "طوكوشوه" ابن عمي، إنني لا أطلب الكثير منك.. فلتدفعي لي ما تستطيعينه.. قد يكفي أن تطعميني بما تجودين به أثناء قيامي بخدمتك".

أخذت "أوشي" تفكر فيما عرضه عليها على حين فجأة دون أن تتبدل تعبيرات وجهها الغاضب. أجل.. فقد كانت في سريرتها تشعر بالحاجة إلى معونته، فقد كانت فترات خروجها إلى الحقل محدودة، ولم يكن هناك براح من الوقت تستطيع خلاله القيام بنزع ذلك الكم المهول من الأعشاب البرية، كما أنها صارت تشعر أنه جاء الوقت الذي صار لزاماً عليها فيه أن تقوم تكثيف مرات قيامها بتقليب زوجها في رقدته في أوضاع مختلفة حتى لا تداهمه قرح الفراش.

عرض عليها بعض جيرانها بالفعل القيام بمساعدتها، لكن شخصية "أوشي" العزيزة الأبية كانت تمنعها من التجاوب مع تلك العروض والتسبب في إزعاج الغير. لقد شعرت بالحنق لأنها أصبحت في حاجة إلى مساعدة ذلك البغيض "سي يوو"، فردت عليه بلهجة محذرة متوعدة:

"يجب أن تعلم جيداً أنه إذا سولت لك نفسك أن تتكاسل عن العمل أو تمد يدك القذرة لتسرق قشة واحدة من البيت.. فإنني سوف أحطم لك عظام خصرك أيها الملعون".

انتهى الأمر بالاتفاق على أن تدفع له أجرة يومية قوامها ألف "ين" بالإضافة إلى الوجبات الثلاث.

اشترطت عليه أن يبدل دلو الماء فور امتلائه علـــى الفــور، وأن يقوم كل نصف ساعة بتغيير وضع نوم "طوكوشوه" وأن يبلغها علـــى الفور بأي ظاهرة غريبة تطرأ على حال زوجهـــا. وبعـــد أن انتهـــت "أوشي" من إملاء شروطها عليـــه ركبـــت دراجتهـــا المتهالكـــة ذات الإطارات الأربعة وانطلقت في طريقها إلى الحقل في عشوائية وترنح حتى إنها كادت تصطدم مرتين بأطفال المدرسة الابتدائية العائدين مـــن المدرسة في الطريق إلى منازلهم.

صار "سي يوو" يراقب بين وقـــت وآخـــر ســـيقان "طوكوشـــوه" ويجلس عند طرف وسادته محاولاً تسليته بأحاديث مختلفة، ولكن لمـــا لم يكن هناك أى رد فعل ظاهر يدل على استماعه إليـــه.. شـــعر فـــي نهاية الأمر بالملل فراح يرفع صوت المذياع ويضبط القناة على موجة الموسيقى الشعبية "لأوكيناوا"، ثم استند بظهره إلى الحـــائط وراح فـــي غفوة خفيفة. ولكن بعد مرور نصف ساعة تقريباً من إغفائه أفاق على إحساس ببرودة سائل ما يتسرب إليه خلال نصـــف جســـده الســـفلي! وحينما فتح عينيه ونظر إلى منطقة حوضه.. اختلط عليه الأمـــر فـــي البداية، وتصور أنه تبول على نفسه لا إرادياً! قام منزعجـــاً متـــوتراً، وبدل الدلو الممتلئ بدلو آخر، ولكنه لاحظ عندئـــذ أن معـــدل المـــاء المتساقط من كعب "طوكوشوه" قـــد زاد كثيـــراً.. ولاحـــظ أن المـــاء المنسكب من الدلو- بعد امتلائه السريع- قـــد بلـــل أرضـــية الغرفـــة واتسعت رقعته بشكل واضح، "ياللهول.. لقد تفاقمت الأمور"!

قام "سي يوو" بسكب الماء عبر النافذة، ثم عاد مسرعاً ليشرع في تنشيف أرضية الغرفة. إلا أنه عاد وتوقف عن عمله لينظر ملياً إلـــى

ذلك الإصبع الكبير الذي تورم كثيراً عما سبق وقد غلبته الدهشة، ثم زفر زفرة عميقة من أعماق صدره وهو يتمتم قائلاً:

"ومع هذا.. فياله من أمر محير"!

وشعر "سي يوو" في اللحظة التالية برغبة ملحة في حك ظهري يديه، فكان قد شعر بالتآكل فيهما منذ دقائق.. وذلك الشعور قد صار مزعجاً هذه اللحظة، وحين فرد كفيه منزعجا ورمقهما وجد هناك بقعاً سوداء غامضة تفترش ظهري يديه، فلما رمقهما جيداً وجد هناك بقعاً قد التصقت بيديه، فأخذ يهز يديه في حركة عصبية لنثر تلك البقع السوداء لكنها لم تكن إلا شعيرات يده التي نمت بسرعة وبشكل غير طبيعي، فاقشعر بدنه من الدهشة والرعب.

كانت شعيرات جسده قصيرة غير ملحوظة تماماً مثل "طوكوشوه"، ولهذا السبب فقد كان مثل ابن عمه يحاول دائماً منذ سنوات أن يحلق تلك الشعيرات لعلها تعود فتنمو بكثافة وقوة. لكن تلك المحاولات كلها كانت تبوء بالفشل، فيبقى شعرهما مثل الزغب الذي يشابه شعيرات الأطفال.. أما الآن فها هو يرى بعينيه ذلك الشعر ينمو متكاثفاً أسود حاداً من ظهر أصابعه وظهر كفيه ليصل حتى معصميه.

وبينما كان "سي يوو" شارداً وهو ينظر إلى ذلك الشعر النابت الأسود اللامع إذ طرأ له فجأة خاطر ما.

لقد انتقل إلى النافذة ونظر منها إلى الحديقة الخلفية، فإذا بالماء الذي كان قد سكبه منذ قليل هناك تحت النافذة يتلألأ تحت أشعة الشمس، ومن خلاله كانت هناك أعشاب متكاثفة باسقة تنضح برائحة الخضرة النضرة.. وهي التي لم تكن موجودة هناك منذ قليل! وعند السياج القريب - حيث طاله جزء من تلك المياه- ظهرت هناك زهور

حمراء وصفراء يانعة كبيرة. عاد "سي يوو" مرة أخرى إلـــى حيــث الدلو واغترف بكفيه حفنة من الماء وأخذ يسكبه على رأســه الصـــليع بينما أخذ يطرقع براحتى يديه فوق رأسه. لم تكد تمر ســوى دقـــائق خمس حتى بدأت النتائج تظهر.

كان يشعر بتآكل ورغبة في حك رأسه وكــأن هنـــاك حشــرات صغيرة تتجول تحت جلده، وعندما أخذ يتحسس رأسه براحة يده شعر ببروز بصيلات قوية نمت منها خصلات شعر طرية الملمس.

كان "سي يوو" يحاول خلال تلك اللحظات أن يكبح جماح ضربات قلبه المتتابعة السريعة وهو يعود ليغترف من الماء الموجود بالدلو. لـــم يكن قد لاحظ وجود فرق بين هذا الماء والماء العادي.. لا في اللـــون ولا في الملمس.. وحين قرب الماء من أنفه لم يشعر بوجود أية رائحة غريبة.

عاد "سي يوو" ليفرد كفيه تحت كعب قــدم "طوكوشـــوه" ليتلقـــى قطرات الماء المتساقطة منه، ثم بدأ يلعق الماء في حرص شديد. كـــان مذاق الماء عذباً عن طريق تذوقه بلسانه، وبعد أن ملأ به فمه أحـــس بوجود مذاق حلو أكثر عذوبة، لقد أخذ بعد ذلك جرعة أكبر وابتلعهـــا ابتلاعاً وهو يدير لسانه داخل جوفه، لكنه في اللحظة التالية شعر بكتلة مفاجئة من السخونة تداهم فتحة شرجه.. لتسري ك تلك السخونة بعـــد ذلك في لحظات معدودة في جسده كله. وعند خصره أحـــس بدغدغـــة لذيذة تسري فيه، وإذا بمقدمة منطاله عند منطقة الحوض تنتفخ بـــارزة للأمام!

تلك السنوات الأخيرة لم يكن يشعر بشيء إذا ظهرت أمامه نســـاء جميلات، فكان عضوه الذكري مثل رأس طائر القبّرة الميت، لكن هـــا هو يراه الآن مثل رأس حية تهتز!

في اللحظة التالية قفز "سي يوو" في الهواء فجأة وهو يتخذ أوضاع الكاراتيه القتالية بيديه وقدميه ثلاث مرات متتالية في انتشاء وعصبية ظاهرتين، ثم صاح قائلاً:

"أريد امرأة.. في التو واللحظة"!

انطلق بعد ذلك خارج الغرفة ليبحث عن دلو جديد يملؤه بقطرات الماء مرة أخرى.

أفاق "طوكوشوه" وفتح عينيه على إحساسه بلعق شخص ما لإصبعه الكبير وكذلك بصوت ضحكات هستيرية عالية.

كان الجنود المعهودين قد دخلوا بالفعل في نوبتهم الثالثة، وحين أدرك "طوكوشوه" أن هؤلاء هم أنفسهم الجنود الذين تركهم في تلك المغارة يواجهون مصيرهم ويموتون وحدهم، ظن في البداية أنهم جاءوا للقصاص منه وقتله. لكنه عندما شعر بالأمان ناحيتهم.. أحس أن سبيله الوحيد للتكفير عن ذنبه ناحيتهم هو إشباع ظمئهم بقدر استطاعته.. فصار في النهاية يشعر بالانتشاء والسعادة من قيامهم على التتابع بمص إصبع قدمه. لكن ذلك الشعور كان مختلفاً لديه الآن.

كان حال هؤلاء الجنود قد اختلف نوعاً ما مع بداية هذه الدورة الثالثة. كان هؤلاء الجنود جالسين هناك مستغرقين في الحوار والثرثرة وكأنهم قد عادت إليهم صحتهم وحيويتهم، أو أنهم صاروا يعتادون جو الغرفة، أو ينتظرون تساقط الماء، وكانوا بين حين وآخر يطلقون ضحكات عالية يكاد صداها يصل إلى البيوت المجاورة.

ظل "طوكوشوه" يحدق في باب الغرفة المغلق مدفوعاً بإحساس ممزوج بالقلق من الانتظار وهو يتوقع مجيء "أوشي" لاستطلاع الأمر بعد سماعها لتلك الضحكات، لكن الوقت كان يمر دون أن يلوح في الأفق أى شيء يدل على انتباهها للأمر، في المقابل لم يكن هؤلاء يعيرون أى انتباه أو اهتمام لوجود "طوكوشوه"!

كانوا يكتفون بأداء التحية المعتادة قبل وبعد رشف قطرات الماء والانحناء برؤوسهم دون أن يوجهوا نظراتهم ناحيته مطلقاً.

وبخلاف "إيشي مينيه" فقد كان من بينهم أيضاً مَن تبادل معه بعض الكلمات أثناء وجوده معهم في تلك المغارة، ولأن هؤلاء لم يُظهروا ناحيته أي اهتمام بل تجاهلوه تماماً، أصبح "طوكوشوه" يشعر بالوحشة والضيق.

أخذ "طوكوشوه" يسائل نفسه عن سبب برودهم ناحيته بهذا الشكل وهو يشعر بالحزن والانكسار، ظل "طوكوشوه" يعاني من ذلك الإحساس بالانكسار عشرات المرات في النهار الواحد دون أن يجد لتساؤلاته إجابة، لكنه في الوقت نفسه كان يحاول .أن يقنع نفسه بعدم السعي وراء معرفة السبب؛ لأن هذا في حد ذاته كان يصيبه بالرعب والفزع من عودة تلك الذكريات التي دفنها في أعماق صدره أكثر من خمسين عاماً، والتي إذا ما عادت إليه لانفجرت مثل عيون المياه الدافقة.

تذكر "طوكوشوه" هؤلاء التلاميذ الصغار الذين جاءوا للاطمئنان عليه وتحيته مع أستاذهم في المدرسة.. وذلك في ظهر أحد الأيام منذ سنوات طويلة.. لأنه خلال تلك السنوات العشر الفائتة ودائماً قبل حلول يوم الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) –وهو يوم تأبين أرواح ضحايا معركة "أوكيناوا"– كان "طوكوشوه" يطوف بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية القريبة منه كي يقوم بإلقاء محاضرات عامة يتحدث فيها عن تجربته الشخصية خلال الحرب، وكان هذا التوقيت الذي يرقد خلاله بالفراش هو نفس فترة يوم التأبين، حيث كان من المفترض أن يقوم بزيارته في السنوات الأخيرة من تلاميذ المدارس أبناء التلاميذ الذين زاروه لأول مرة منذ سنوات بعيدة.

في بداية الأمر كان من دفعه إلى القيام بذلك النشاط هو مدرس لأحد المدارس الابتدائية يسكن في الحي نفسه، طلب منه الحضور لمدرسته للحديث أمام تلاميذ فصله. كان "طوكوشوه" قد رفض مراراً عروضاً مشابهة رغبة منه في الاحتفاظ بالذكريات الأليمة لتلك الحرب داخل أعماق صدره ومحاولة نسيانها.

استمر الحال على هذا الشكل إلى أن جاءه يوماً ذلك المدرس المدعو "كينجووه" والذي كان قد تخرج لتوه في الجامعة، فصار يلح عليه في إصرار وعناد شديدين، وهو الذي كان يبدو عليه شكه في مصداقية "طوكوشوه" لأنه لم يكن قد عاصر تلك التجربة. وفي يوم من الأيام اصطحب ذلك الشاب معه تلميذتين صغيرتين كانتا تمران معه على بيوت الرجال الذين عاصروا تلك المعركة الشرسة وتستمعان منهم إلى ذكريات وتفاصيل تلك الأيام.

صار الثلاثة يتضرعون إليه ساجدين أمامه.. لم يجد "طوكوشوه" بداً من تلبية طلبهم. وحين قام "طوكوشوه" بإلقاء تلك المحاضرة.. كان طيلة الوقت منكباً على الأوراق التي أعدها فقرأها دون أن ينظر للحاضرين، وكان ذلك داخل حجرة دراسة في حصة خاصة بتلاميذ السنة السادسة الابتدائية. كان من المقرر أن يكون زمن الكلمة ثلاثين دقيقة، إلا أن "طوكوشوه" تلا كلمته باللغة الفصحى التي لا يعتاد الحديث بها وهو يتعثر بين جملة وأخرى، وأنهاها بسرعة في ربع ساعة فقط.

بمجرد أن رفع "طوكوشوه" وجهه عن أوراقه في حذر وقلق لينظر إلى وجوه التلاميذ ويطالع رد فعلهم، ساد صمت مطبق استمر لبضع ثوان إلى أن ضجت حجرة الدراسة بالتصفيق الحار.

استطاع "طوكوشوه" أن يلحظ بعض وجوه التلاميذ المنفعلة بعيونهم التي اغرورقت بالدموع وهم يصفقون بكل حماس وقوة، فأصيب "طوكوشوه" هو الآخر بالاضطراب والانفعال.. في الوقت نفسه الذي أصيب فيه بالدهشة وهو يسائل نفسه عن السبب الذي دفع هؤلاء التلاميذ إلى الانفعال والتأثر بهذه الدرجة.

منذ ذلك اليوم صارت تتكالب عليه طلبات المدارس الابتدائية والإعدادية لإلقاء محاضرات في نفس محيط القرية، وانتشرت شعبيته لتصل إلى القرى والمدن المجاورة.

في تلك الفترة ذاتها بدأت اللجنة التعليمية بالقرية في تسجيل التجارب الذاتية لعجائز القرية والمحاربين القدامى خلال معركة أوكيناوا، وكان حديثه إلى أعضاء هذه اللجنة بداية لزيارات متتابعة من الصحفيين ومجموعات الدراسات الميدانية الجامعية له في بيته، كذلك قام "طوكوشوه " بتسجيل لقاءات تليفزيونية أكثر من ثلاث مرات.

حدث بعد ذلك أن قامت بزيارته مجموعات من الطلبة اليابانيين من اليابان الأم في إطار رحلات ترفيهية جماعية لنهاية الدراسة، وقد كان يدرك تماماً ما يريد هؤلاء الطلبة من معرفة قصته والاستماع إليه، فكان حريصاً على انتقاء كلماته وعدم الإفراط في ذكر أمور بعينها لم يذكرها أمام أبناء جزيرته، فقد كان أحياناً حين يستفيض في سرد ذكرياته يلحظ نظرات الشعور بالذنب الجادة في عيون بعضهم، وكان كثيراً ما يلحظ نظرات الخوف والرهبة في عيون آخرين.

في نهاية الأمر صارت زوجته "أوشى" تحذره قائلة:

"سوف يقع على رأسك إن آجلاً أو عاجلاً غضب السماء إذا تماديت في جمع الأموال والمكاسب من استدرار عطف الناس

ودموعهم بحكايات عن ميدان القتال قد تغلفها بحكايات وأكاذيب ملفقة مختلفة".

حتى لو لم تكن هناك نصائح أو تحذيرات من زوجته، فقد كان "طوكوشوه" بعد انتهائه من محاضرة ما أو لقاء، كان يعقد العزم على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة، لكنه بمجرد شعوره بالانتشاء من التصفيق الحاد ومن تلقي باقات الزهور وكلمات الثناء الحانية الودودة من التلاميذ.. كان يجد نفسه راغباً في مواصلة نشاطه وأحاديثه. أضف إلى هذا شعوره بترقب حجم المكافأة المالية عن كل محاضرة وذلك وهو في طريق عودته إلى البيت قبل فتح المظروف المغلق. كان "طوكوشوه" في معظم الأحيان ينفق تلك المكافآت على الخمر والميسر، لكنه أيضاً استطاع من خلال بعض تلك المكافآت شراء آلة وترية جديدة لـ"الشاميسين"، وكذلك شراء سنارة رائعة للصيد مجهزة بكل الإمكانيات.

صار الأطفال الذين زاروه للاطمئنان عليه في فراشه يرهقون بنظراتهم البريئة ساقه المغطاة بمنشفة كبيرة، وقال بعضهم له:

"نريدك أن تسترد عافيتك بأسرع وقت ممكن"!

ثم قاموا بالتتابع بتقديم باقات الزهور له وكذلك أشغال الورق الملون التي صاغوها على شكل طيور الكركي متمنيين له الشفاء العاجل. في هذه اللحظة شعر "طوكوشوه" برغبة جارفة في الاعتذار عن أية أكاذيب كان قد اختلقها خلال أحاديثه معهم، وأحس بأنه صار واجباً عليه أن يصارحهم بما جرى حقيقة في مسرح القتال، لكنه لم يجرؤ على ذلك، واكتفى بأن تدور تلك الخواطر برأسه وحسب! وهنا استعاد في ذاكرته كلمات زوجته "أوشي".

قالت له:

"سوف يقع على رأسك عقاب السماء إذا تكسبت المال على حساب استدرار عطف الناس لما حدث لك في ميدان القتال"!

كان هناك واحد من هؤلاء الجنود يحدق في "طوكوشوه". لقد كان يتذكر تلك النظرات المليئة بالخوف والرعب، وكانت نظرات رفاقه من الجنود الآخرين –على العكس– وتعبيرات وجوههم هادئة وديعة، أما ذلك الجندي الذي كان يبلغ العشرين من عمره تقريباً فكان يحتفظ طيلة الوقت بعلامات التجهم على وجهه.

كان كلما قام رفيق من رفاقه بأداء التحية والانحناءة المعهودة امتعض ذلك الشاب وضغط بكفه على صدره وكأنه يعاني من الضيق، وبعد ذلك جاء دوره فجلس على ركبتيه وبدأ يشرب قطرات الماء.

بعد انهيار دفاعات الجزيرة ودمار القوات العسكرية أخذ "طوكوشوه" ورفاقه يتنقلون من مكان لآخر هرباً من الجحيم، واستمروا على حالهم هكذا حتى التقوا مرة أخرى بالشراذم المتبقية من فصيلتهم في ذلك الكهف الطبيعي بأقصى جنوب الجزيرة، وهو الكهف الذي كان قد تحول إلى مشفى ميداني. وكان من بين الموجودين هناك بعض الفتيات من طالبات المدارس اللاتي تم ضمهن إلى كتائب التمريض. وكان من بين اللاجئين إلى ذلك الكهف أيضاً عدد من مدرسي المدرسة التي كان ينتمي إليها، وكان الجميع يحاولون الاطمئنان على سلامة أقاربهم ومعارفهم عن كثب.

ومنذ ذلك اليوم مضت عدة أيام واصل خلالها "طوكوشوه" ورفاقه مهام نقل الأوامر، والحصول على الطعام، وملء الماء وإحضاره، ودفن الجثث، وغيرها من المهام دون أن يأخذوا قسطاً من الراحة.

وكان قد التقى بذلك الجندي الشاب حين كان يشرع في حمل دلـو امتلأ بالبول والبراز إلى خارج الكهف. كان "طوكوشوه" وهـو يشـق طريقه إلى الخارج يزيح عن طريقه أيادي وأذرع المصابين الراقـدين على أسرّة مثبتة إلى الجدران على جانبي الممر الضيق، ولكـن فـي لحظة ما أمسك أحدهم بطرف الدلو، فانسكبت محتويات الـدلو فـوق وجه واحد من الراقدين هناك.

تسمر "طوكوشوه" في مكانه وهو يتوقع سيلاً من السباب والشتائم سينهال عليه لا محالة بين لحظة وأخرى، لكن ذلك لم يحـدث. ولمـا كان ذلك بالقرب من مخرج الكهف فقد استطاع "طوكوشـوه" تمييـز ملامح وجه ذلك الجندي الراقد على هدي بصيص الضوء المتسـرب من المدخل، وهو الوجه الذي كان مبللاً بالبول والبراز.

كان ذلك الجندي يمد لسانه خارج فمه ويجتهد فـي لعـق البـول والبراز الذي أحاط بفمه، وكانت العصابة الطبية الملفوفة حول صـدره تعلو وتهبط بشدة مع أنفاسه السريعة. وفي اللحظة التالية تحركت رأسه في وهن... وأحس "طوكوشوه" أن عيني ذلك الجندي الغـائرتن فـي وجهه الشاحب النحيل كانتا تحدقان فيه.

في تلك اللحظة شعر أن هذا الجندي لن يطلع عليه الصباح! وهنا صاح "طوكوشوه" بصوت عال محاولاً طمأنته قائلاً:

"سأحضر لك الماء على الفور".

ثم اندفع "طوكوشوه" بسرعة مغادراً الكهف، لكنه في النهايـة لـم يستطع أن يفي بوعده!

أفاق "طوكوشوه" على ألم يسري في قدمه من عضعضـة أسـنان ذلك الجندي في إصبعه.

كان يبدو أن معدل نزول قطرات الماء قد ضعف عن المعتاد. وقد أخذ "طوكوشوه" يسائل نفسه عما إذا كان بهذا قد استطاع الوفاء بوعده القديم أم لا!

لكن الخوف والرعب من أن تتلبس جسده أرواح هؤلاء الجنود القتلى حتى الموت كان يتغلب على إحساسه بالراحة لنجاحه في ري ظمئهم.

في هذه اللحظة أخذ ذلك الجندي الذي اهترأ أو سقط جزء كبير من وجهه يلكز الجندي الجالس أمامه بركبته!

نهض ذلك الجندي المسكين واقفاً على قدميه وعلامات الانكسار وعدم الاكتفاء تكسو وجهه، ثم رمق وجه "طوكوشوه" بتلك العينين المرعوبتين اللتين كان يتذكرهما تماماً، وحين قام ذلك الجندي الشاب بالانحناء لأداء التحية، وضع كفه على صدره وكأنه يحبس الألم، ثم توجه ناحية الحائط واختفى خلاله.

بعده مباشرة جثا الجندي التالي على ركبتيه ليبدأ في مص الإصبع الكبير لـ"طوكوشوه". في هذه اللحظة طارت ذبابة من داخل ذاك التجويف الغائر في وجه الجندي وظلت تحوم لفترة من الوقت حول رأس ذلك الجندي، وبمجرد أن هبطت على ملاءة الفراش تلاشت واختفت عن الأنظار.

كان هذا الجندي هو الآخر واحداً من الذين تعلقوا بثياب "طوكوشوه" متضرعاً إليه في طلب الماء داخل ذلك الكهف.

أما ذلك الجندي الطويل القامة الواقف خلفه في انتظار الدور، وكذلك الجندي الأوكيناوي المختبئ خلفه، والجندي ذو الوجه المقطوع الذي خرج لتوه من الحائط... فقد كانوا كلهم في تلك الليلة داخل الكهف يمدون أياديهم وأذرعتهم في إلحاح طلبا للماء.

داهم "طوكوشوه" شعور محموم في تلك اللحظة بأن قوة ما تجذبه جذباً وتشفطه شفطاً إلى غياهب ذلك الكهف ليدخل إليه مرة أخرى!

وحين شعر "سي يوو" بخيال شخص ما يقترب من الغرفة أسرع بلملمة النقود التي افترشها أمامه على الأرض، ثم خبأها تحت المساند والحواشي القطنية.

قام " سي يوو" بتوجيه ضوء مصباحه اليدوي من خلال النافذة إلى الحديقة الخلفية، بعد ذلك قام بإغلاق النافذة وتأكد من إغلاق "المزلاج" المعدني لها، وبعد أن اطمأن تماماً لعدم وجود أحد من الفضوليين عاد ليبدأ في إحصاء نقوده.

كانت فعالية الماء أكثر بكثير من توقعات "سي يوو"، على سبيل المثال فقد نبت الشعر خلال خمس دقائق فقط في رأس رجل كان يعاني من الصلع.. وكان رأسه دميماً مقززاً من البقع السوداء التي غطته.

قام رجل آخر يعمل معلماً بإحدى المدارس الثانوية بإنفاق كل مدخراته لشراء حفنة من الماء من "سي يوو" وسكبه فوق رأسه، فنبت شعره خلال ثلاث دقائق فقط، وكان ذلك الرجل يعاني كثيراً من ضحكات الناس الساخرة وتعليقاتهم اللاذعة على صلعة رأسه.

كان هناك أيضاً مَن بلل وجهه بهذا الماء ليكتسب بشرة ناضرة "لامعة" بعد أن كانت البثور المقززة تفترش وجهه، وكان هناك من سكب الماء على عضوه الذكري المنكمش المتهدل لسنوات طويلة ليجده في لحظات منتصباً كبيراً، لدرجة جعلته يحمل مقدمته حملاً من ثقله وهو يسير في الطريق.

وصل الأمر إلى درجة أن الكثيرين من أهل القرية من الرجال الذين كانوا ينعتون "سي يوو" بالنصب والشعوذة صاروا يتدفقون متزاحمين وهم يطرقون باب منزل "طوكوشوه" طلباً لذلك الماء بأي ثمن بعد أن شاهدوا بأعينهم شيخاً في الثامنة والثمانين من عمره يقهقه ضاحكاً بعيون مفتوحة واسعة مثل عيون الفيل، بينما كان يتحسس مقدمه سرواله المنتفخة بعد أن دعك عضوه الذكري الضامر بذلك الماء.

لقد كان "سي يوو" يظن أنه غالى في الثمن حين عرض الزجاجة المملوءة بذلك الماء من سعة اللتر الواحد بعشرة آلاف "ين"، إلا أنه فوجئ بنفاد كل الزجاجات خلال أقل من ساعة واحدة!

خلال اليومين الأول والثاني حينما بدأ "سي يوو" ملء زجاجات الخمر الياباني (الساكيه) الفارغة سعة اللتر الواحد – بعد أن جمعها من هنا وهناك – بتلك المياه الغامضة العجيبة، قام ببيع تلك الزجاجات المملوءة عند تقاطع الطريقين الرئيسيين بالمدينة المجاورة، ولكن بحلول اليوم الثالث، وبعد نفاد ذلك النوع من الزجاجات الشفافة، قام بالإسراع في جمع زجاجات بنية اللون بدلاً منها وكتب عليها بخط مذهب عبارة "ماء المعجزة" على ورقة بيضاء لصقها على الزجاجات، وبعد ذلك انتقل إلى مكان آخر عند ناصية من الشارع التجاري الرئيسي ومارس نشاطه في البيع خلال ساعة واحدة من السابعة حتى الثامنة ليلاً، لكن الحقيقة أن الزجاجات كانت تباع كلها خلال ثلاثين دقيقة فقط.

وكان مَن سمع قصة ذلك الماء من أهل القرية يتجمعون ويأخذون دورهم في طابور طويل منذ الظهر! وكان "سي يوو" قد حدد زجاجة واحدة فقط لكل زبون من الزبائن، ومع هذا فقد كان الكثيرون منهم لا

ينجحون في الحصول على شيء لنفاد البضاعة بسرعة شديدة، فكان "سي يوو" يضطر في النهاية إلى تحصيل النقود مقدماً من الزبائن الغاضبين وإعطائهم كوبونات للحجز للشراء في اليوم التالي.

لجأ "سي يوو" في النهاية إلى تخفيض العبوة إلى النصف ولمضاعفة الثمن لإرضاء الجميع ولمضاعفة المكسب.. ومع ذلك فقد زاد عدد الزبائن عن ذي قبل.

كان هناك أيضاً من اتهموا "سي يوو" بالنصب والخداع ادعاء منهم بأنه لجأ أخيراً إلى تعبئة الزجاجات بماء عادي بعد أن تأكدوا من ذلك من خلال فحص محتويات الزجاجات، ومع ذلك فقد ظهر التأثير الإيجابي واضحاً على أجساد كل من قاموا بالشراء وعلى صحتهم، حتى إن بعضهم من العجائز صار في النهاية يصلي أمام "سي يوو" اعتقاداً منهم بأنه متصل بالآلهة والأرواح وأن له قدرات خارقة.

وبينما كان "سي يوو" يبتسم ملء شدقيه وهو يتابع بعيونه اللامعة أرقام دفتر توفيره ويكدس النقود داخل حقيبته، كان يفكر جدياً في كيفية اختتام نشاطه التجاري بعد أن أدرك أن عصابات المافيا بالمنطقة ستبدأ بالتدخل لتحصيل الإتاوة منه لا محالة إن آجلاً أو عاجلاً.

وجاء رجال الإعلام مرتين لعمل لقاءات وحوارات مع "سي يوو"، ولذلك بدأ "سي يوو" يخطط جدياً للهرب بما معه من أموال إلى اليابان الأم قبل أن تلحظ وجوده مصلحة الضرائب أو مكاتب التأمين الصحي.

كان معدل الماء المتساقط من قدم "طوكوشوه" قد بدأ في الانخفاض شيئاً فشيئاً بشكل ملحوظ، فصار "سي يوو" في خلال اليوم

الواحد يملأ بالكاد ثلاثة من الجرادل البلاستيكية، ومع ذلك فلـو رفـع الثمن قليلاً لكسب في اليوم الواحد ما يقارب مليوناً من الينـات، إلا أن حاسة شم "فار الجحور" الحساسة كانت تنذره بخطر قريب.

كانت فرائصه ترتعد من عصابات المافيا ومن مصلحة الضرائب، ولكن ما كان يثير رعبه أكثر من ذلك هو انفضاح أمره لدى "أوشـي"! ولهذا السبب فقد أخذ يقلل من نشاطه في بيع الماء شيئاً فشيئاً.

حدد "سي يوو" لنفسه ثلاثة أيام أخرى للانتهاء من تجارته، بينما كان في الوقت نفسه يمني نفسه بجولة على مواخير الدعارة في مدينـة "هاكاتا" في أقصى غرب اليابان حتى طوكيو العاصمة، وبينمـا كـان يحلم بتلك المغامرات وضع حقيبته المكتنزة بالنقود تحت رأسه وخلـد إلى النوم.

مر أسبوعان كاملان منذ أن تورمت قدم "طوكوشوه".

كان شهر "تموز" (يوليو) قد بدأ.. فحل القيظ والحـر مـع أزيـز ألوف من حشرات الجراد الأسود. ومع هذا فلم تنقطع طوابير العجائز والصغار من أهل القرية الذين وفدوا على بيت "طوكوشـوه" لمتابعـة حالته وهو راقد بلا حراك كما هو.

تجاوزت أحاديث أهل القرية مسألة الماء المتساقط من إصبع قدم "طوكوشوه" الكبير لتأخذ منعطفاً آخر، حيث صاروا يذكرون الأساطير والخرافات المتوارثة منذ قديم الأزل بالقرية بشأن ذلك الرجل الذي فقأ عينيه ثعبان من ثعابين "الحنش" السامة الذي كان يختبئ في محـراب معبد القرية، أو بشأن تلك العجوز الشمطاء التي عاشـت حتـى سـن المائة وعشرة أعوام وظهر بجبهتها بروز غريـب، وهـم يتوقعـون حدوث معجزة جديدة لن يستغرب أحد ما حدوثها مـع ذلـك الرجـل المريض الراقد.

عادت " أوشي" إلى رتابة حياتها اليومية العادية، فصارت تستيقظ قبل أن تحل الساعة السادسة صباحاً لترتشف كوب الشاى الأخضر بينما تلعق قطعة من السكر الأسود، ثم تخرج بعد ذلك قبل اشتداد الحر إلى الحقل للعمل. وكان "سي يوو" في المقابل يستيقظ في التوقيت نفسه ليشارك "أوشي" احتساء الشاي، ثم يعود إلى غرفة "طوكوشوه" ليواصل العناية به وتمريضه حتى غروب الشمس. وخلال ذلك كان يقوم بتنظيف الغرفة والذهاب لشراء حاجات البيت.. بل إنه كان يذهب من تلقاء نفسه لحش الاعشاب البرية لإطعام الماعز.

كان "سي يوو" مجتهداً مثابراً في عمله لدرجة أن "أوشي" صارت تشك في يوم من الأيام أنه أصيب بوعكة في صدره من الإجهاد في العمل. لكن الحشائش البرية النامية في كثافة ونشاط بالحديقة الخلفية للبيت كانت تعود للنمو في الليلة الفائتة.

كانت "أوشي" تنوي انتقاده ومهاجمته مرة أخرى بسبب ظهور تلك الحشائش بشكل مزعج.. لكنها عادت تكبح نفسها عن ذلك أمام مثابرته وجديته الملحوظة في العمل في شئون البيت الأخرى.

حين عادت "أوشي" في السادسة مساء قامت بتبديل النوبة مع "سي يوو" فمسحت جسد زوجها بالمنشفة وقامت بتغيير ملابسه، وبعد ذلك تحممت ثم بدأت تتناول عشاءها، وبعد أن انتهت من هذا وذاك جلست على الأرض بجانب الفراش وأخذت تقص على زوجها أحداث هذا اليوم بالقرية بينما ألقت بأذنها مع المذياع.

كان الطبيب "ووشيرو" دؤوباً على القيام بزيارات للبيت للاطمئنان على حالة "طوكوشوه" بمرافقة بعض الممرضات حيث كان يتبادل معهن نوبات الزيارة على فترات قصيرة متتابعة دون توقف.

بالإضافة إلى تعليق قنينة الغلوكوز فقد كان متصلاً بأنف "طوكوشوه" ذلك الأنبوب البلاستيكي الخاص بإمداده بالغذاء، ولذلك فلم تكن حالته سيئة بشكل يدعو للقلق، فكان كل ما تغير أنه مال إلى النحافة قليلاً، لكن نضارة بشرته -على العكس- صارت واضحة ملحوظة المقارنة بذي قبل، وتحسن أيضا قياس ضغط الدم الخاص به، وقد يكون ذلك راجعاً إلى توقفه عن شرب الخمر وتدخين السجائر خلال فترة رقوده على الفراش.

كانت ساقه لا تزال على حالها من الالتهاب والتورم دون تحسن ملحوظ، ولكن معدل تساقط قطرات الماء من إصبعه صار أقل من الأيام السابقة، وكان يبدو أن ذلك التطور يحدث خصوصا أثناء الليل حيث يكاد الماء المتسرب ينقطع تماماً، لكن ما كان يثير القلق هو عدم استطاعته الجزم بما إذا كان ذلك علامة مبشرة أم علامة منذرة بمكروه ما!

كان الدكتور "أووشيرو" كلما التقى بالزوجة "أوشي" يعاود نصحها بإدخال "طوكوشوه" إلى المستشفى. وبالرغم من أن "أوشي" كانت تصر على الاستمرار في الرفض بحجة عدم ثقتها في المستشفى الجامعي، إلا أنها في الحقيقة كانت في قرارة نفسها قد بدأت تشعر بالقلق والحيرة يعتريان قلبها من ناحيتها، فلم تكن تتوقع أن تسوء حالة ساقه عما هي عليه الآن، لكنها في الوقت نفسه لم تكن تشعر بأية بادرة للتحسن والشفاء في المستقبل القريب.

ولما كانت أحياناً تتخيل استمرار حاله هذه حتى الموت، فقد أصبحت كمن يريد التعلق بأية قشة للخروج من هذه الدائرة المفرغة.

لقد صارت "أوشي" تتمتم بين الحين والآخر في سريرتها قائلة:

ـــ "يا لحيرتي.. ترى ماذا أستطيع أن أفعل؟".

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تصاب فيها "أوشي" بوهن العزيمة وقلة الحيلة والانكسار منذ زمن الحرب!

في تلك الليلة وبعد عودتها إلى غرفتها مباشرة، عاود هؤلاء الجنود الظهور في غرفة "طوكوشوه" كعادتهم كل ليلة.

عندما اندفع الجندى الأول ليلعق إصبع قدم "طوكوشوه" وكأنه كان ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة.. شعر "طوكوشوه" برعشة قوية تسرى في جسده كله من إحساسه ببرودة شفتي ولعاب ذلك الجندي، ولم يستطع الاستغراق في النوم طوال الليل من قلقة من حركة ألسنة وشفاه هؤلاء الجنود حول إصبعه. وأصبح يشعر بالتوتر والضيق من ثرثرة وهمهمة الجنود، فصاح بهم يزجرهم أكثر من مرة، لكن صوته المبحوح الضعيف كان يتسرب بالكاد من فمه وبالتالي لم يعره أحد منهم أي اهتمام.

شعر "طوكوشوه" هذه الليلة –ولأول مره– بأنه لو استمر الحال هكذا على هذا المنوال لفقد رشده، وأصيب بالجنون في آخر الأمر.

لم يستطع أن يسد أذنيه، وكذلك لم يستطع الانزلاق تحت لحافه لإخفاء وجهه، وكان كلما بدأ يغفو ويغيب عن الوعي..استيقظ مرة أخرى. وفى اللحظة التي سمع فيها بالكاد دقات ساعة الحائط معلنة تمام الخامسة، فوجئ برفيقه القديم "إشي مينيه" يقف ماثلاً أمام عينيه!.. أجل كان واقفاً هناك يحدق في عيني "طوكوشوه"، ولم يكن هناك في الغرفة سوى الاثنين فقط، وها هو "إيشي مينيه" الذي اكتفى طوال الليالي السابقة بالإطراق بوجهه محدقاً في أرضية الغرفة.. ها هو

يعتصر بقبضة يده ماسورة الفراش النحاسية ويستند بجنبه إلى الناحية اليمنى من الحائط، وهو يجلس القرفصاء ببطء، ثم بدأ يلعق بخفة وهدوء إصبع قدم رفيقه وقد كاد الماء ينقطع تماماً عن السقوط منه.

أخذت ذكريات تلك الليلة الأخيرة التي افترق فيها عن "إيشي مينيه" تطفو إلى ذهنه.

وقت الغروب انفجرت إحدى قذائف مدفعية الأسطول الأمريكي بالقرب منه ومن رفاقه مباشرة حين خرجوا يلتمسون طريقهم لتعبئة المياه.

في نفس لحظة الانفجار تناثرت أشلاء ثلاث من الفتيات المتطوعات اللاتي كن من طالبات المدارس الثانوية، أما "إيشي مينيه" فقد أصيب بشظية في بطنه ليتمزق وتسيل منه الدماء، ولم يبق هناك سوى "طوكوشوه" سليما يستطيع التحرك.

كان يبرز من كف "إيشي مينيه" في تلك اللحظات جسم غريب، وكان يضغط بهذه الكف على بطنه المصابة المجروحة بينما كان يتأوه من الألم، وهو ذلك الجسم الغريب الذي يظهر أمام عيني "طوكوشوه" كلما كان "إيشي مينيه" يقوم بتقطيع وتشريح لحم الخنازير وماعز الجبل!

قام "طوكوشوه" بحل الرباط الذي يلفه حول ساقه أعلى الحذاء وربط به عين "إيشي مينيه" بدلاً عن الضمادة الطبية، ثم أخذ يجره نحو الكهف الذي كانا يختبئان به. ولكن بمجرد دخوله إلى الكهف انهالت عليه صرخات شتائم الجنود المعتكفين بذلك الكهف لتطالبه بالإسراع في جلب الماء والطعام.

اضطر "طوكوشوه" إلى إرقاد "إيشي مينيه" بحالته تلك عند مدخل الكهف إذ كان عليه الإسراع بالانطلاق بحثاً عن المياه.

بحلول الليل ساد الهرج والمرج والصراخ أركان ذلك الكهف الكبير. كانت الأوامر قد صدرت بالتحرك لمغادرة المكان، فنهض من كانوا يستطيعون التحرك ليحملوا ما استطاعوا حمله.. فقد كان الأمر الصادر إليهم بالانتقال إلى الطرف الجنوبى للجزيرة.

تعالت صرخات الجنود الجرحى الذين أدركوا أن رفاقهم سيتركونهم هناك لمصيرهم المجهول، واختلطت تلك الصرخات بزعيق جنود وضباط الصف من صغار الرتب، والذين كان أحدهم يزجر "طوكوشوه" ويعنفه لحثه على التحرك بسرعة هو ورفاقه من الجنود الصغار.. أجل لقد اختلط ذلك الصراخ ببعضه البعض في فوضى محمومة يلفها الظلام الدامس المقبض.

بعد ذلك بدقائق سمعت أصوات الأمتعة وهي ترتطم ببعضها البعض بينما كان يحملها "طوكوشوه" ورفاقه عن الأرض، وتختلط وتتداخل بصوت ارتطام قطرات المطر الكثيف الذي انهمر على المكان على حين فجأة، كانت كل تلك الأصوات المتداخلة تدوي في أذني ورأس "طوكوشوه" الذي كان يجلس القرفصاء بجانب "إيشي مينيه".

كان "طوكوشوه" خلال تلك اللحظات يجتهد في التفكير في كيفية إنقاذ رفيقه الجريح، لكنه في النهاية لم يستطع الوصول إلى أي شيء.

كان ذلك الكهف الطبيعي محفوراً في بطن غابة متكاثفة بجبل محدود الارتفاع من الحجر الجيري المميز لجزيرة"أوكيناوا".

مع ارتطام المطر الكثيف بأوراق الأشجار المتكاثفة تصاعدت الشبورة لتحجب الرؤية أكثر فأكثر، ولتحجز بين جسد "إيشي مينيه" المختبئ في تجويف صغير بذلك الحائط الصخري بالقرب من مدخل المغارة وبين "طوكوشوه" الذي كان يجلس بالقرب منه.

في اللحظة التالية مرق اثنان من جنود الاستطلاع خارجين من غياهب المغارة يحملان البنادق، وانزلقا مهرولين يشقان الطريق عبر المنحدر إلى أسفل الجبل خلال الأشجار الباسقة، وكان يبدو أن الانسحاب من المغارة قد بدأ بالفعل.

في اللحظات التالية كانت تظهر خيالات سوداء متتابعة للجنود المنطلقين في طريقهم إلى الهرب وسط الظلام الدامس منزلقين عبر المنحدر. وهنا حمل "طوكوشوه" جسد "إيشي مينيه" وأسنده إلى الجدار الصخري، ثم أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً وهو يكتم أنفاسه ليلحق ببقية الجنود المغادرين، بينما كان يلتفت بين لحظة وأخرى إلى الخلف مودعاً بنظراته خيال رفيقه المسجى هناك حتى غاب عن ناظريه.

كان هناك عدد قليل من أولئك الجنود ممن كانوا يستطيعون السير بشكل طبيعي، أما معظمهم فقد كانوا يتكئون على بعضهم البعض أو يتوكأون على العصي وأفرع الأشجار وهم يأخذون زملاءهم في طريقهم فيسقطون معهم بسبب لزوجة التربة التي ابتلت تماماً بالمطر الغزير المنهمر بلا هوادة، وبين وقت وآخر كانت تنطلق الصرخات المكتومة التي تأمرهم بالصمت وكتم الأفواه.

في اللحظة التالية ظهرت أمام عيني "طوكوشوه" مجموعة من فتيات المدارس المتطوعات وهن يحملن رفيقة لهن على نقالة، وقد تعرف على وجه إحداهن حين اقترب خيالها تماماً منه.

كانت واحدة من بنات قريته اسمها "مياغي سيتسوقو" تبادلت معه حديثاً قصيراً بعد أن بادرته بالسؤال:

"ما مدى إصابة الرفيق "إيشي مينيه"؟

كان "إيشي مينيه" المستند بظهره إلى الحائط الصخري والذي خرجت أنفاسه ضعيفة متحشرجة على وشك أن ينكفئ على وجهه بعد أن خارت قواه، ولم يكن أمام "طوكوشوه" إلا أن يحرك رقبته يميناً ويساراً علامة على استسلامه للأمر وقلة حيلته، فلم تكرر عليه "سيتسوفو" سؤالها عن "إيشي مينيه".

كانت أصابعها الجافة المتشققة تطبق بقوة على رقبته، وفي اللحظة التالية دفعت إلى راحتي يديه قارورة معدنية للمياه وكيساً من الورق، وفي اللحظة التالية نفضت عنها ذراعي "طوكوشوه" اللتين كانتا تحاولان الإمساك بها ودفعها إلى العودة مرة أخرى إلى مكان "إيشي مينيه"، وبعد ذلك وضعت كفيها على كتفي "طوكوشوه" وضمتهما بقوة وهي تصيح به قائلة:

"سننطلق نحو مغارة العمليات الجراحية السريعة بمنطقة "إيطومان"، وعليك أن تلحق بنا إلى هناك، فلا تتلكأ".

كانت نظراتها حادة وهي تحدق بوجه "طوكوشوه" تحثه على البقاء طويلاً، بعد ذلك مدت "سيتسوقو" يدها لتمسح بها وجه "إيشي مينيه" في رفق وكأنها تودعه الوداع الأخير، ثم انطلقت مسرعة تشق طريقها خلال الأشجار المتكاثفة عبر ذلك الجرف المنحدر الوعر، كان كل ما ميزه "طوكوشوه" خلال الظلام الدامس هو ضفيرتي شعرها وهما تتأرجحان خلف ظهرها وبينما تسرع الخطو.

لا يذكر "طوكوشوه" كم من الوقت مر عليه وهو يجلس القرفصاء هناك بجانب "إيشي مينيه"، وكان خيال الجنود المسرعين المبتعدين يتضاءل، وكان "طوكوشوه" قد خارت قواه وهو ينحني إلى الأمام على عكازه، وما لبث أن انكفأ على وجهه وهو يزحف زحفاً بيديه وقدميه

مثل حيوان جريح التوت أقدامه الأربعة تحته، بينما كانت صرخات ولعنات وبكاء "إيشي مينيه" تتابعه في يأس وتختلط بصوت طرطشات الطين الذي يزحف خلاله "طوكوشوه"، وفي تلك اللحظات استطاع "طوكوشوه" أن يميز بالكاد أصوات صرخات زملائه الجنود المكتومة وهم ينزلقون ويتدحرجون ثم يستقرون بلا حراك أسفل الجرف الوعر.

"طوكوشوووه"!

أحس "طوكوشوه" بأن صوت "إيشي مينيه" الضعيف الوهن يستنجد به، أو هكذا تخليه، فرد عليه هاتفا بصوت عال:

"إيشي مينيييه"!

ولكن لم يكن هناك من مجيب!

عاد "طوكوشوه" أدراجه نحو مكان "إيشي مينيه" وهو يتحسس طريقه في الظلام، وعندما وصل إلى مكانه.. قرّب وجنته من وجنة "إيشي مينيه" محاولاً تحسس أنفاسه، فأدرك زفراته الضعيفة الواهنة، فقام "طوكوشوه" بإرقاده على الأرض، وهنا التقطت أذناه صوت حشرجة ضعيفة تصدر من بطنه المصابة والمربوطة بحزام سرواله العسكري (الجتر)، فأخرج كسرة جافة من الخبز من داخل الكيس الورقي الذي تسلمه منذ قليل من "سينسوقو" ووضعها في يد "إيشي مينيه" وساعده في أن يقبض عليها بقوة. وبعد ذلك صب بعضاً من ماء الزمزمية في راحة يده وزحلقها في فمه المفتوح الذي ظهرت من خلاله أسنانه البيضاء اللامعة.

ولحظة أن رأى "طوكوشوه" خيوط الماء المنساب من طرفي فم "إيشي مينيه" وتنزلق على صدغيه.. لم يستطع رؤية هذا المنظر، فوضع فوهة الزمزمية على فمه وأخذ يجرع الماء وكأنه يموت

عطشاً، وعندما أخذ يلتقط أنفاسه بعد الانتهاء من الشرب كانت الزمزمية قد صارت فارغة تماماً. لكن في اللحظة التالية بدأ يشعر بوخز مؤلم ينتشر خلال كل خلايا جسده. ركع "طوكوشوه" على ركبتيه وأخذ يحدق في رفيقه "إيشي مينيه" المسجى على الأرض، شعر أنه لم يعد قادراً على حمل "إيشي مينيه" أو التعديل من وضعه لتصلب جسده وثقله، وكانت الظلمة الجاثمة والماء المخلوط بالطين قد تشرب بهما ذلك الجسد خلال كل خلاياه. في تلك اللحظات أيضاً لم يعد يسمع أي صوت صادر من داخل المغارة.

وضع "طوكوشوه" الزمزمية الفارغة بجوار خصر "إيشي مينيه" ثم همس إليه قائلاً:

"اغفر لي يا "إيشي مينيه"!

بعد ذلك انزلق بجسده على المنحدر بسرعة بينما أخذت أغصان الشجر تصطدم بوجهه بقوة، وظل هكذا مندفعاً حتى نفذ من خلال الدغل الكثيف.

على ضوء القمر ظهر أمام عينيه ذلك الطريق الحجري الأبيض، وشيئاً فشيئاً أخذ يميز أجساد الجنود المفروشة على الطريق وكأنها قطع من المحار الأسود المتناثرة، وعلى البعد على الناحية الأخرى من الطريق كان هناك خط من الأجساد المسجاة على الأرض طويل متعرج أسود يشبه ثعباناً ضخماً يعاني سكرات الموت، بينما تتقشر قشوره قشرة قشرة، وتهوى إلى الأرض، انطلق "طوكوشوه" يعدو مترنحا بحذاء ذلك الصف الأسود من خلال الجنود الممددين على قارعة الطريق، وكان يعتقد أن هؤلاء الجنود المسجون هناك الفاردين أذرعتهم قد فارقوا الحياة جميعاً، إلا أنه تعثر أثناء ركضه بذراع

احدهم الذي امتد فجأة فانكفأ على وجهه، وحين التفت خلفه مذعوراً شاهد ظلا أسود يزحف نحوه وهو يمد ذراعه إليه محاولاً التشبث به، لكن "طوكوشوه" دفع تلك الذراع بعيداً بكل قوة وهو خائف يرتعد، وفي اللحظة التي حاول فيها النهوض على قدميه مرة أخرى فوجئ بألم رهيب يسري عبر ساقه اليمنى، فتملكه الزعر من أن يعجز عن الهرب ويواجه نفس مصير الآخرين فأخذ يجر ساقه جراً محاولاً الاستمرار في العدو بكل قوة. وعلى حين فجأة دوى صوت انفجار شديد خلف ظهره.

كان الوهج الشديد الباهر الناتج عن الانفجارات المتتابعة يغطي أرجاء الدغل الخلفي الذي نفذ خلاله منذ لحظات، وخشي "طوكوشوه" أن يكتشفه الجنود الأمريكيون على هدي ذلك البريق اللامع، فأخذ يواصل ركضه وهو مجرجراً ساقه، مذعورا، وهو يسب ويلعن جندياً من رفاقه فجرّ نفسه على مقربة منه بقنبلة يدوية، وبعد ذلك بأربعة أيام كان "طوكوشوه" قد وقع أسيراً في أيدي القوات الأمريكية عند ساحل "مابوني" أقصى جنوب الجزيرة، ولقد علم بعد ذلك أن بعض الجنود الأمريكيين قاموا بانتشاله وإنقاذه حيث كانت الأمواج المتلاحقة عند الساحل تتقاذفه وتؤرجحه وهو فاقد للوعي.

منذ ذلك اليوم ظل يعيش أيامه مرعوباً في معسكر الأسرى وفي القرية؛ خوفاً من أن ينفضح أمره لدى أهل الجزيرة فيلومونه على تخليه عن"إيشي مينيه" وتركه وحيداً يواجه مصيره المحتوم.

بعد أن عاد إلى قريته بأسبوع.. جاءت والدة "إيشي مينيه" لزيارته، حاملة معها بعضاً من المعلبات التي يوزعها الجيش الأمريكي كمعونة لأهل الجزيرة وبعضاً من ثمار البطاطا، ولم يستطع أن يتحمل النظر إليها وعلامات السرور البريئة تغمر وجهها بعودته سالماً وكأنه

واحد من أهلها. لقد كذب عليها حين أخبرها بأن "إيشي مينيه" تاه عن ناظريه أثناء الفرار، وأنه لا يعرف أين يكون وما حدث له.

مع مرور الشهور والسنين، وفي خضم زحمة الحياة اليومية ومشاغلها.. نسي "طوكوشوه" تماماً ما كان من أمر "إيشي مينيه" ولم يعد يتذكر أحداث تلك الليلة أبداً، أو على الأصح فقد كان يجتهد في محو تلك الذكريات محواً.

كان أبوه "مينيه طوكو"، الذي تم تجنيده في فرق الدفاع عن الجزيرة، قد صار هو الآخر في عداد المفقودين ولم يعد أحد يعرف مصيره.

أما جده وأختاه الصغيرتان فبعد الإفراج عنهم من معسكر الأسرى لقوا حتفهم الواحد بعد الآخر مصابين بعدوى الملاريا.. وكل من تمكن من لقائه مرة أخرى هما جدته وأمه ثم أخوه الأصغر الرضيع.. ولم يتبق منهم سوى هؤلاء الثلاثة. كانت أمه أصلاً ضعيفة الجسد هزيلة معلولة، ولهذا فلم تكن تستطيع إرضاع وليدها.. وكان اسمها "طومي"، أما وليدها الرضيع فقد كان الذباب يتجمع بصفة دائمة فوق البثور والدمامل التي افترشت رأسه الأقرع، ولم يعش طويلاً حيث لفظ أنفاسه قبل أن يبلغ من العمر عاماً واحداً. وأوكل "طوكوشوه" أمر رعاية وتمريض أمه "طومي" الطريحة الفراش إلى جديه، وقام بتزييف سنه لدى جيش الاحتلال الأمريكي ليرتزق بأعمال حملِ الأمتعة في الميناء العسكري الأمريكي رغم أنه لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.. وذلك أثناء فترات النهار، أما في الصباح الباكر وخلال الليل فقد حرص على القيام بأعمال الفلاحة في الحقول.

بعد مرور سنتين ماتت أمه "طومي" وصار يعيش بمفـرده مـع جدته العجوز، وأخذ أحياناً يغادر قريته ليعمل باليومية فـي المنطقـة الوسطى بالجزيرة التي نشطت بها أعمـال المنشـآت فـي القواعـد العسكرية الأمريكية، وأحياناً أخرى كان يقوم بأعمـال الطـلاء فـي العاصمة "نهى"، ولكنه في كل مرة لم يكن يستمر طويلاً في موقعه.

بعد أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره عاد ليستقر فـي القريـة لتكوين بعض القوارب من مخلفات صفائح البنزين الفارغة والخاصـة بالطائرات الأمريكية، وهي قوارب بدائية تجدف بـالأذرع، وأحيانـاً أخرى كان يقوم بالتقاط الأسماك المختبئة في الوحل في الحقـول ثـم يبيعها في السوق ويقتات منها. وعندما بلغ السابعة والعشرين تعـرف على "أوشي" التي كانت تعمل بتجارة السمك وتزوج بها، لكن فرحـة جدته بتلك الزيجة لم تستمر طويلاً. لقد كانت "أوشي" تكبـره بسـنتين، ورغم تسلطها وجبروتها، إلا أنها مروءة وشهامة، فظلت تتفـانى فـي خدمة الجدة وتقوم على رعايتها والاهتمام بها لمدة ثلاث سنوات حتـى ماتت الجدة. أجل.. لقد كانت تحنو عليها أكثر من أمها الحقيقية.

بعد ذلك صارت "أوشي" تتردد على مستشفى القرية ظناً منهـا أن سبب عدم الإنجاب راجع إليها، وكانت تفعل ذلك تحـت غطـاء مـن السرية. لكن ما دفع "طوكوشوه" إلى الإدمان في شراب الخمـر كـان سبباً مختلفاً، ففي مراسم الذكرى الأربعين لوفاة الجـدة سـمع النسـوة العجائز يتحدثن بأمر "مياغي سيتسوقو".

كان "طوكوشوه" تلك الليلة المشئومة حين وصل بعد جهـد شـاق إلى مغارات التمريض بمنطقة "إيطومان" وجد تلك المغارة قد دمـرت عن آخرها بواسطة الجنود الذين هبطوا عليها، ومنذ تلك اللحظـة لـم

يكن أحد يعرف المصير الذي واجهته "سيتسوقو" وأولهم "طوكوشوه" الذي واصل الهروب هائماً على وجهه حتى حوصر عند ساحل "مابوني" بالطرف الجنوبي للجزيرة.

الحقيقة أن "سيتسوقو" كانت قبل ذلك بيوم واحد قد سلكت ذلك الطريق نفسه متوجهة إلى نفس المكان، وكانت قد انتحرت بقنبلة يدوية مع خمس من رفيقاتها الطالبات وسط مجموعة من الصخور لا تبعد مسافة مائتي متر عن حائط صد الأمواج الذي كان يطفو عنده "طوكوشوه" فاقد الوعي بعد ما قذفته بعيداً خلخلة الهواء الناتجة عن انفجار قنبلة من القنابل الأمريكية.

بعد أن رحل الأقارب الضيوف من المعزين عن المكان، ذهب "طوكوشوه" بمفرده إلى شاطئ البحر، وهناك قفزت إلى ذاكرته صورة وجه "سيتسوقو" وهي تناوله زمزمية الماء والخبز الجاف بينما كانت تضع يدها الأخرى فوق كتفه. شعر "طوكوشوه" بإحساس طاغٍ. مسح "إيشي مينيه" فمه المبتل بخفة بإصبعه السبابة ثم نهض واقفاً.. وهو يبدو في السابعة عشرة.. تماماً مثل يوم أن لقي حتفه!

كانت ترتسم ابتسامة غطت شفتيه الحمراوين وصدغيه النحيلين وعينيه ذات الأهداب الطويلة، بينما كان يرمق وجه "طوكوشوه" عن قرب، لكن الغضب انفجر من "طوكوشوه" دون سابق إنذار وهو يصيح قائلاً:

"هيهات أن تشعر بمدى الحزن الذي عانيتُ منه طوال تلك الأعوام الخمسين"!

لكن "إيشي مينيه" كان يكتفي بالابتسام وهو يحدق في وجه "طوكوشوه"، وفي اللحظة التالية أومأ "إيشي مينيه" برأسه إيماءة خفيفة

وهو يتابع بناظريه "طوكوشوه" الذي يحاول جاهداً النهوض من رقدته.

وهنا خرج "إيشي مينيه" عن صمته لأول مـرة ليقـول بكلمـات واضحة المخارج:

"شكراً لك.. لقد استطعت أخيراً إرواء ظمئي"!

ثم انحنى "إيشي مينيه" برأسه وهو مؤدياً التحية بينما كان يكـبح جماح ابتسامة عريضة كادت تفلت من ثغرة.

وحتى اختفى "إيشي مينيه" من خلال الحائط لم يحـاول الالتفـات أبداً ليلقي النظرة الأخيرة على "طوكوشوه"، وفي اللحظة التالية علـى اختفائه مرقت سحلية زاحفة بسرعة البرق فوق الحائط المتسخ لتلـتهم حشرة هناك وتبتلعها في لمح البصر!

ومع أضواء الفجر الأولى ترددت في جنبات القرية النائمة أصداء نواح وبكاء "طوكوشوه".

في ذلك اليوم جاء "سي يوو" مبكراً على غير العادة، فإذا به يراها ترقد وهي تجهش بالبكاء وقد تبللت وسادتها تمامـاً بـدموعها، وهـو الأمر الذي أدهشه كثيراً، فلم يحدث أبداً أن رأى دموعها من قبل، وقد جعله هذا يظن للوهلة الأولى أن "طوكوشوه" قد مات أخيراً بعـد تلـك الرحلة الطويلة من العذاب، لكنه عندما أدار وجهه في تـردد وخـوف لينظر إلى وجه "طوكوشوه" الراقد في الناحية الأخرى علـى فراشـه وجد عينيه مفتوحتين عن آخرهما وهو يحدق به!

"لقد شفيت"!

بعد أن نطق "طوكوشوه" بهاتين الكلمتين وقد ارتسمت على وجهه ذي الذقن الأشقر غير الحليق ابتسامة عريضة أظهرت تجاعيده كلها.. عاد ليغمض عينيه تماماً.

نظر "سي يوو" إلى قدمه تلك ففوجئ أن الورم قد زال تماماً وأن قطرات الماء قد توقفت! وهناك في الدلو كانت كمية بسيطة من الماء لا يتعدى سمكها سنتيمتراً واحداً، وفوق صفحة الماء كانت هناك حشرة صغيرة مجنحة طافية بلا حراك.

عندما شرع "سي يوو" في مغادرة الغرفة بخطى خفيفة حتى لا يلاحظه أحد، نادته "أوشي" واستوقفته.

في اللحظة نفسها سال العرق البارد على وجهه وهو يلتفت ناحيتها في تردد وبطء، فاقتربت منه "أوشي" بوجهها المبلل بالدموع دون أن تمسحه، ثم أمسكته من يده بقوة وهو الذي كان ينوي الهروب من المكان.

"إني أشكرك.. فبفضلك كتبت لزوجي السلامة".

بعد أن تفوهت "أوشي" بهذه الجملة القصيرة مدت يدها داخل جيبها، ثم أخرجت مظروفاً ورقياً ودسته في يده ثم انحنت له برأسها تحية وامتنانا ابتسم لها "سي يوو" في بشاشة وقال لها:

" سوف أعود لزيارتك فيما بعد".

ثم غادر الغرفة، وبمجرد أن خرج "سي يوو" من البوابة أطلق ساقيه للريح عائداً إلى بيته.

أجل، فلو عرف الناس أن الماء لم يعد يتساقط من إصبع "طوكوشوه" فلن يبق هناك ما يدعوه للبقاء في القرية.

التقط "سي يوو" حقيبة ملأها بالنقود وملابسه ثم قام بعمل مكالمة لطلب سيارة أجرة من الهاتف العمومي الموجود أمام متجر الجمعية التعاونية.

وبعد أن جلس على الأريكة الخلفية للسيارة الأجرة وتنفس الصعداء تذكر ذلك المظروف الورقي الموجود بجيب منطاله، وحين اختلس نظرة سريعة إلى محتوى المظروف وجد به ثلاث ورقات نقدية من فئة العشرة آلاف ين، لقد كان هذا المبلغ ضرباً من البذخ والإسراف بالنسبة لـ"أوشي".

شعر "سي يوو" في تلك اللحظة بوخز الضمير، لكنه عاد ليقنع نفسه بأنه قام بدوره كما يجب في تمريض "طوكوشوه"، وهنا طلب من السائق أن يسرع في الطريق.

كان موعد حجز تذكرة الطائرة بعد أسبوع كامل من ذلك اليوم، وكان ينوي قضاء ذلك الأسبوع الباقي بأحد فنادق العاصمة "تاها".

أخذ "سي يوو" يتحسس الحقيبة بجانبه، فعدا الخمسة ملايين ين السائلة، كانت هناك عشرة ملايين ين أخرى في رصيده في البنك، والحقيقة أن ما كان بتلك الحقيبة لم يكن فقط غياراته الداخلية وذلك المبلغ النقدي، فقد كان يحتفظ هناك أيضاً بأربع قنينات معدنية تحتوي ذلك "الماء"!

أخرج "سي يوو" واحدة من تلك القنينات، وخلط ذلك الماء بالويسكي الذي كان في قنينة صغيرة أخرى، وبعد أن قام برج القنينة تجرع بعضاً من ذلك الخليط، فإذا بالدماء تنشط في جسده وغرائزه الجنسية تتأجج، فأخذ يضحك بصوت عال، وهو يتخيل خطة تلك الرحلة التي كان يحلم بها في الوقت الذي وجه فيه سائق السيارة للذهاب إلى المدينة المجاورة ليقوم بتصفية متجره الكائن هناك.

لكنه فوجئ بجمع غفير من البشر يقفون أمام واجهة متجره، فأغلق على وجه السرعة باب السيارة الذي فتحه له السائق. لقد ظن

في بداية الأمر أن الجميع يصطفون في انتظاره لكي يبيع لهم مزيداً من الماء، وظل لبضع لحظات متردداً: أيغادر السيارة أم ينطلق بعيداً بها؟ حتى فوجئ بجو غريب مثير للتساؤل.

كان كل المجتمعين هناك يلبسون القبعات ونظارات الشمس ويخفون جوههم بالكمامات القماشية الطبية، وكان منهم من يمسك بيده بمضارب البيسبول المعدنية، وعندما فتح فمه كي يطلب من السائق أن يسرع بالمغادرة، انتبه أحدهم لوجود "سي يوو" هناك بداخل السيارة الأجرة، وفي لحظات أحاطت تلك الجموع الغفيرة بالسيارة، وفي اللحظة التالية كانوا قد جذبوه من السيارة وجروه جراً وهو يتشبث بحقيبته.

جلس "سي يوو" القرفصاء على الأرض وهو يحمي رأسه بذراع وبالذراع الأخرى يمسك بالحقيبة بكل قوة، لكن الآخرين حملوه حملاً في الهواء عالياً، فإذا برجل يصيح في أذنيه قائلاً:

"قف على قدميك" .

أمام عينيه كان ذلك الرجل يمسك بقنينة زجاجية تبقي في قاعها كمية قليلة من الماء تتأرجح يميناً ويساراً، وفي اللحظة التالية صرخ الرجل قائلاً:

" ما هذا الماء بحق الآلهة " ؟

" إنه ..... إنه (الماء المعجزة) ..."

ولكن قبل أن ينهي "سي يوو" جملته هذه عاجلته لطمة من كف امرأة تقف إلى جانبه وهي تصيح في حدة قائلة:

"أي معجزة وأي ماء أيها الأخرق؟".

قام بعض المحيطين به بمحاولة إبعاد المرأة، إلا أنها في اللحظة التالية ركلته في قصبة ساقه بكعب حذائها العالي فصرخ "سي يوو" من شدة الألم وانكفأ بحركة تلقائية كي يضع يده على مكان الضربة، لكن رجلاً آخر كان يقف أمامه تماماً أمسكه بقوة من ياقته ورفعه مرة أخرى ثم زعق قائلاً:

"أتعلم ماذا حدث لي بسبب مائك العفن ذلك الذي بعته لي؟ هيا أنظر جيداً".

فى اللحظة التالية خلع الرجل كمامته ونظارته الشمسية وخلع قبعته، فإذا برأسه تنبت به شعيرات تشبه الفطر مثيرة للتقزز، وكان وجهه ملطخاً بالبقع مليئاً بالتجاعيد.

كان الرجل يصرخ ويبكى في هستيريا وهو يقول:

"ماذا ستفعل بي بحق السماء؟".

حين دقق "سي يوو" في وجهه أدرك انه مدرس الثانوى ذلك الذي كان زبونه رقم الثاني.

بعد ذلك أخذ الباقون تباعاً ينزعون قبعاتهم ونظاراتهم الشمسية وكماماتهم القماشية، وحتى النساء منهم قد سقطت شعورهن تماماً، وكان منهم رجل في الثمانين من عمره تلطخ وجهه تماماً بالبقع والبثور. حين مسح ذلك الرجل العجوز براحة يده على رأسه تساقط شعره كله، وقبل أن ينتهى ذلك الرجل من صرخاته قائلاً:

"أيها الأحمق".

كانت قبضته أسرع من كلماته!

كان وجه "سي يوو" المنعكس على زجاج سيارة الأجرة المشروخ قد تغيرت ملامحه تماماً.

لقد تمزقت أوراق البنكنوت وطارت في الهـواء مبعثـرة هنـا وهناك، وعلى الطريق اصطدمت السيارات القادمـة تباعـاً بعضـها بالبعض.. فتوقفت حركة المرور، وأسرع الموظفون والعمال الذاهبون لأعمالهم يتجمعون لاستطلاع الأمر.

وسط ضجيج آلات التنبيه وصياح قائدي السـيارات الغاضـبين، انكفأ "سي يوو" على وجهه وحاول الفرار خلال السـيقان المتزاحمـة حوله على يديه ورجليه، لكن بعضهم أمسك به من قفاه وألقـاه بقـوة ليصطدم بالإسفلت، وبعدها انهالت كعوب الأحذية والقبضات المتتاليـة عليه كنقر الطيور على جسده النحيل المنكمش الذي يشبه فأر الجحـور بلا رحمة ولا هوادة.

وسط تلك الضجة الهوجاء انطلقت امرأة عجوز شـمطاء شـعثاء الشعر يغلب على رأسها الصلع، وتترهل وجنتهـا ورقبتهـا، لتتسـلق السيارة الأجرة وهي تحمل في يديها ثلاث زمزميات، ثم أخذت تسكب الماء على رؤوس جميع المتحلقين حول السيارة وهي تطلق ضـحكات هستيرية متواصلة.

خلال ذلك وقعت إحـدى القنينـات تحـت أقـدام المتجمهـرين وتدحرجت حتى سقطت في النهر القريب، وأخذت تعلو وتهـبط علـى صفحة النهر حتى وصلت إلى المصب عند البحر وهي تـتلألأ تحـت أشعة شمس الصباح بينما هاج وماج الجمع الغفير من النـاس وقلبـوا سيارة الدورية التي دخلت بينهم لتفريقهم .

بعد مرور عشرة أيام على تلك الأحداث.

كان "طوكوشوه" جالساً في غرفته يراقب حشائش الصيف النابتـة في الحديقة الخلفية عبر النافذة المفتوحة.

بعد انقطاع الماء المنسكب من قدمه لم يعد هؤلاء الجنـــود مـــرة أخرى لزيارته، ومع ذلك فقد ظل يشعر بالقلق حين يخلد للنـــوم لـــيلاً، حتى إنه ظل لمدة ثلاثة أيام متتالية يطلب من زوجته "أوشي" أن تنـــام على الأرض بجانب فراشه.

لم تكن "أوشي" تفعل ذلك عن رضاء منهـــا، بـــل كانـــت تشـــعر بالامتعاض من ذلك. كان "طوكوشوه" يتردد في أنْ يفضي إليها بـــأمر "إيشي مينيه" ورفاقه من الجنود حين كانوا يظهرون أمامه كـــل ليلـــه لارتشاف الماء، بينما كانت تحكي له الأحداث التي مرت بهـــا القريـــة خلال رقدته الطويلة على ذلك الفراش ليل نهار تحت ضوء مصـــباح الغرفة الباهر الذي لم ينطفئ أبداً.

لكنه في النهاية لم يستطع أن يخبرها بهذا السر، كما لو كان يشعر أنه لن يبوح لها يوماً ما بهذا السر أبداً.

في الوقت نفسه فإنه في قرارة نفسه كـــان ينـــوي أن يصـــطحب زوجته ويقوم بزيارة لتلك المغارة يوماً ما بعد أن يستعيد عافيته تماماً.

كان ينوي أن يخبرها فقط أنه كان يختبئ في تلك المغـــارة أثنـــاء الحرب.. ويكتفي بوضع الزهور والبحث عن بقايا العظـــام المبعثـــرة هناك.

رغم اعتزامه القيام بتلك المهمة.. إلا أنه كان يشعر بالتردد فـــي الإقدام على فعل ذلك، ويؤجل تلك الزيارة بحجة أو أخـــرى، محـــاولاً التحايل على نفسه وخداع ذاكرته.. في الوقت نفسه الذي كان يتوقع فيه أن ينسى ما حدث بينه وبين "إيشي مينيه" في يوم من الأيام.

عاد ليتجرع خمر الساكيه.. رغم أنه قطع على نفسه عهداً بعدم العودة إليها.

قام "طوكوشوه" ذات يوم بالذهاب إلى بيت "سي يوو" للاطمئنان عليه، فقد ظل الثاني راقدا ملازماً فراشه منذ ذلك اليوم الذي أوسعه فيه أهل القرية ضرباً وركلاً، لكنه التقى مصادفة ببعض أصدقائه الذين اعتاد السهر معهم هناك، فذهب معهم لاحتساء الخمر بصحبة "سي يوو".

كان "سي يوو" قد تكسرت عظام ذراعيه الاثنتين، ولذلك فقد جلس يحتسي الخمر معهم وهو يرشفه بأنبوب بلاستيكي لعجزه عن الإمساك بالقدح، وفي نهاية الأمر دارت الخمر برأس "سي·يوو" فثمل ونام وهو جالس في مكانه، إلا أن "طوكوشوه" والآخرين استمروا في الصخب واحتساء الخمر، وعندما انتصف الليل بدءوا في لعب القمار بالورق.

في صباح اليوم التالي حين كان "طوكوشوه" ممدداً وغارقاً في النوم خارج بوابة البيت خرجت "أوشي" مبكرة كعادتها لتجده في طريقها، فركلته بقدمها ثم انطلقت نحو الحقل دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

أخذ "طوكوشوه" يتمتم في سريرته قائلاً:

"حسناً، سأخرج من الغد إلى الحقل لأواصل العمل".

فكر "طوكوشوه" أن يبدأ بحش الأعشاب البرية النابتة في حديقة المنزل الخلفية كنوع من إعادة الحركة والنشاط إلى جسده، فذهب إلى غرفة المخزن وتناول المنجل ونزل إلى الحديقة.

اندهش من ذلك النمو السريع للحشائش التي وصلت أطوالها إلى خصره تقريباً، فأخذ يتحسس جذور سيقان النباتات والحشائش بشظية

خشبية طويلة خشية أن يفاجأ بثعبان أو حنش ما يختبئ هنا أو هنـــاك، ففوجئ في لحظة ما بطرف العصا تصطدم بجســـم صـــلب مـــا بـــين الحشائش، أخذ يفسح الحشائش المتكاثفة وهو يتقدم في حـــذر خلالهـــا، ففوجئ بوجود قطعة ضخمة من ثمار القرع العسلي يعجز عن حملهـــا وحده تقبع هناك تحت شجيرات سياج الحديقة. كانت تلمع تحت أشـــعة الشمس بقشرتها الخضراء النضرة الغامقة، وكانت تنبت منها شعيرات قصيرة متباعدة، فاندهش "طوكوشوه" من شكلها وشهق بعمق، وحـــين ركلها بقدمه لم تتحرك من مكانها قيد أنملة.

من طرف تلك الثمرة الكبيرة كانت هناك زائدة بارزة فـــي حجـــم إصبع القدم الكبير، وكانت تلك الزائدة محشورة تحت شجيرات السياج، وعند طرف تلك الزائدة كانت هناك زهرة صفراء نابتة تتمايل تحـــت السماء الصافية الزرقاء، ومن فرط وهج تلك الزهرة الصفراء انكمشت عينا "طوكوشوه" فرفع ذراعه بحركة عفوية ليحجب عنهما ذلك الوهج الباهر!

انتهت

صوت الريح

FUON

كان الرفيق "شين" أول من صرخ في البداية قائلاً "هل تستطيعون تسلق هذا؟" لكن.. بالرغم من أنه كان صاحب الفكرة إلا أنـــه تراجـــع عن التسلق، أما "أكيرا" ورفاقه الآخرون فقد ظلوا يضحكون ســخرية من "شين"، ولم يجرؤ أي واحد منهم على لفظ كلمة "التسلق" هذه، بينما كانت عيونهم معلقة إلى أعلى ذلك الجرف الشاهق الــذي كـــان يبـــدو أقرب ما يكون إلى زاوية قائمة.

كان ذلك الجرف الشاهق الممتد بعرض الساحل قد تعرت واجهته الصخرية البنية المصفرة اللون، ولا تزال محفورة بطوله آثار قصـــف مدفعية الأسطول الأمريكي. مطلاً على مصب نهر "إي غامي غـــاوا" وهو النهر الذي كان ينساب في وسط القرية. وفي بقعة ما مـــن بطـــن ذلك الجرف، كانت هناك شجرة ضخمة تتمدد فروعها وأغصانها على شكل مروحة كبيرة مفتوحة، بينما ظهرت جذورها الطويلـــة النحيلـــة المتفرعة طولاً وعرضاً، والبارزة فوق سطح الصخور، وكأنها سيقان عنكبوت كبير، أو أطراف نجم البحر، أما أوراق تلك الشجرة الوارفـــة الداكنة الخضراء، والتي تستحم بشعاع الشمس القوي، فقد كانت تبـــدو متلألئة زاهية وسط السماء الصافية الزرقاء التي سكنت بهـــا الـــريح تماماً. وكانت الثمار المدلاة من فروع هذه الشجرة كثيفة متداخلة تشبه شعر جسم دمية الأسد الضخمة التي كانت تستخدم في احتفالات القرية، وتمتد تلك الثمار والفروع وكأنها تتشمم فـــي ســـكون تلـــك الرائحـــة

الحمضية للتربة الزلقة الرخوة التي تكونت من الأوراق الذابلة المتعفنة عند سفح الجرف، وهناك، وحول تلك الثمار، كانت تلتــف وتتشــابك براعم زهور "وجه الظهر" المنداة التي كانت تلمع تحت أشعة الشمس. وهكذا كانت تلك الخضرة الزاهية الطاغية التي بدت مثل فيضان كبير تأخذ أبصار "أكيرا" الذي يقف مشدوهاً بتلك الطاقــة الطاغيــة للحيــاة والطبيعة.. في الوقت نفسه يشخص ببصره إلى ذلك التجويف المربــع الفاغر فاهه بين شلالات تلك الثمار والزهور.

كان التجويف لمقبرة جماعية في سالف الزمن، لكن أحداً مــن أهل القرية الكبار السن لم يكن يعلم على وجه الدقة ظروف بدايتها أو تاريخها. يتناقل عجائز القرية حكايات هــذه المقبــرة فــي اســتثارة ملحوظة ويقولون إنه إذا وضعت جثــة مــا هنــاك فــإن الطيــور وسرطانات البحر وحشرات الشاطئ، وكذلك الرياح الآتية من البحر تأتي وتأكلها وتترك عظامها بيضاء نظيفة لامعة، كان "أكيرا" يستعيد ذكريات تلك الأحاديث وهو يتخيل نفسه يكتشف هيكلا عظيماً متلألئاً تحت أشعة الشمس، وقد ظهر نصفه خاليــاً مــن رمــال الشــاطئ البيضاء. لقد كان ما يتمناه "أكيرا" أن يشاهد بعينيه ولو لمرة واحــدة مثل هذا المنظر. لكن المقبرة تكاد الآن تختفي في ظل زهور "وجــه الظهر" وفروع الشجرة الوارفة المتكاثفة.

قبل أن تندلع الحرب، كانت هناك درجات حجرية محفورة قويــة متينة تمتد بطول الجرف، ويستطيع الناس بفضلها تسلق الجرف حتــى قمته.

في ذلك العهد كان عدد من أهل القرية يقومون بحمــل النعــوش على أكتافهم لتشييع من يغادرون هذه الدنيا إلى العــالم الآخــر. لكــن

مدفعية الأسطول الأمريكي نسفت الدرجات الحجرية، كما أن مشاة البحرية الذين نزلوا على الشاطئ خلعوا ما تبقى منها واستخدموها في بناء قواعدهم العسكرية.

بعد انتهاء معركة "أوكيناوا"، كان كل ما يشغل أهالي القرية الذين خرجوا من جحورهم، زاحفين مثل قطعان سرطان البحر خلال الغابات والجبال، هو حماية أرواحهم والنجاة بأعمارهم، ولم يكن يهمهم أمر تلك الدرجات الحجرية من قريب أو بعيد.

وبعد مرور بعض الوقت بدأت حياة القرية اليومية تعود إلى طبيعتها شيئاً فشيئاً، لكن أحداً لم يقم بإعادة بناء تلك الدرجات الحجرية.

وهكذا انعدمت الحيل في سبيل الصعود نحو تلك المقبرة الجماعية الطبيعية، وظلت تختفي مع الزمن تدريجياً تحت أغصان تلك الشجرة الضخمة التي نبتت من خلال شقوق الصخور. لكن ذلك لا يعني أن أهل القرية نسوا أمر تلك المقبرة، على العكس، أخذوا يهتمون بذلك المكان بشكل مختلف عما كانوا يهتمون به من قبل.

أخذ "أكيرا" ورفاقه يحدقون بأبصارهم، وهم يتأملون تلك الكتلة البيضاء غير الواضحة المعالم، التي ظهرت طافيةً وسط ذلك الفراغ المعتم.

كانت تلك الكتلة عبارة عن جمجمة قديمة استقرت في مكان ظاهر ملحوظ، عند مدخل المقبرة الجماعية الموجودة في العراء، وكأنها وضُعت عن عمد في ذلك المكان. تجويفا العينين الغائرتين السوداوين يظهران كما لو كانا طوال هذه السنين يراقبان البحر المتسع على امتداده حتى خط الأفق.

كانت الموجات المتتابعة الصغيرة على صفحة ماء النهر، تلــوح للعين من هذا المكان، بينما النهر يمضى لينتهي في البحر عند مصــبه الهادئ الساكن.

كانت الريح الخفيفة التي تهب فوق أسراب السمك الصغير المتجه نحو أعالي النهر تدغدغ الموج المتلألئ فــي هــدوء تحــت أشــعة الشمس.

ووسط تلك الدقائق التي كانت تمر بطيئةً هادئــةً بينمــا تنطلــق الطيور ذات الألوان الزاهية تقطع السماء الزرقــاء، وتتمايــل الأوراق الصغيرة الصفراء للأشجار مع الريح الخفيفة، وتراود الآذان أصــوات زقزقة حشرات الجراد الأسود من بعيد، وينساب من مكان ما صــوت شجن حزين يشبه صوت الناي! .. حبس "أكيرا" وزملاؤه أنفاسهم بينما كانوا يحدقون في تلك الكتلة البيضاء المســجاة أمــام أعيــنهم، كــان الصوت الغريب صادراً عن تلك الجمجمة!

لم يكن أحد يهمس بتلك الهمهمة التي تبدو وكأنها تنطــق بكلمــة "مبجل. مبجل"! كان صوت الريح عالياً وأحياناً خفيفاً، ويروم بعــرض سفح ذلك الجرف المظلم، ذلك السفح النحيف مثــل أضــواء حشــرة "اليراعة" فيخترق طبلة أذن "أكيــرا" ورفاقــه ليســتقر فــي أعمــاق صدورهم، ويذوب خلال الماء البارد الآسن المتجمــع تحــت جــذور الأشجار العجوز، عادة حين كانت تُسمع أصوات الريــاح وصــفيرها، كان كل من يمر بهذا الجرف يحاول جاهداً مغالبة الرعب الذي يجتاح قلبه، ويسير حذراً بخطى متسللة لا تصدر صوتاً ليغادر المكان.. وبعد السير لمسافة ما يبدأ الجميع في الركض هرباً وتعلو صرخاتهم، لكــن الأمر اليوم كان مختلفاً.. فلم يكن يبدو أن أيــاً مــنهم يزمــع الهــرب والمغادرة.

من بين الرفاق هناك من لم يحتمل ذلك الجو المقبض، فزفر زفرةً عميقة، وكأنما كان ذلك الصوت إشارة متفق عليها، حيث تبادل الجميع في نفس اللحظة النظر، وعادوا ليحدقوا في مصدر صوت الصفير.

كان يُشاع أن الصوت يصدر عندما تمر الريح التي تأتي عابرةً من ناحية البحر، خلال تجويف عيون الجماجم فيتردد صدى الريح خلال فراغات الجمجمة الداخلية، ولكن لم يكن هناك من يجرؤ على التأكد من تلك الأقاويل بنفسه.

حتى شباب هذه القرية الذين اشتهروا بطبيعتهم الغليظة الجسورة، لم يقدم أي منهم على إظهار شجاعته والحضور إلى هنا للتأكد من تلك المقولة.

اندهش "اكيرا" من نفسه حين خرجت منه الكلمات التالية:

"ألا نتأكد بأنفسنا من مصدر هذا الصوت"؟

وفي لحظة اعترت تعبيرات الخوف والاقتضاب وجوه الرفاق.

من بين مجموعة الشباب كان هناك شاب يدعى "أوسامو"، ويعتبره الجميع في مرتبة قائد المجموعة، حتى هذا الشاب الجسور بدا مرتبكا متخوفا من اهتزاز اعتزازه بنفسه حين قال ضاحكا لـ" أكيرا" وهو يشير إليه بطرف أنفه:

"هل تستطيع أنت القيام بتلك المهمة"؟

وهنا سحب "أكيرا" قنينة "المايونيز" الكبيرة التي كان يحشرها تحت إبطه، ورفعها أمام وجه "أوسامو". كان يبدو من خلال الزجاج الشفاف داخل القنينة سمكة من نوع الـ"تيرابيا" في حجم قبضة يد رجل بالغ اصطادها "أكيرا" لتوه من البحر، وقد ظهرت من خلال

تقعير الزجاجة السفلي أكبر من حجمها وهي تدور بنظراتها بالتبادل بين وجهى "أكيرا" و"أوسامو".

بادر "أوسامو" رفيقه يرد عليه، وهو ينظر إلى القنينة:

"يمكنك أن تضع هذه بجوار تلك الجمجمة ثم العودة إلى هنا"!

يبدو أن مزحة "أوسامو" هذه لم تحظ بإعجاب رفاقه الذين رمقوه بنظرات الازدراء، فعقب "أكيرا" بعد لحظات من التفكير:

"مقابل هذا، هل تأت أنت يا "أوسامو" إلى هنا لإحضار تلك الزجاجة "؟

امتعض وجه "أوسامو" في نفس اللحظة التي سمع فيها كلمات "أكيرا"، ولكنه لم يجد مناصاً من أن يومئ برأسه بدليل الموافقة على ذلك الشرط الغريب، بينما تسمر في مكانه بسبب نظرات "أكيرا" وسمكة الـ" تيرابيا" المتفحصة الموجهة نحوه"!

ثم استطرد "اكيرا" بسرعة وهو يدور بعيونه بين وجوه رفاقه:

"حسناً.. دعونا نراهن على بقاء سمكة الـ" تيرايبا " هذه حية أم لا داخل هذه الزجاجة المملوءة بالماء بعد أسبوع من الآن"!

ودون أن يتيح "أكيرا" للآخرين فرصة للتفكير في الرد، انطلق يعدو حاملاً تلك القنينة صوب أسفل الجرف، وأمسك بقبضتيه حزمة من أفرع نبات زهرة "وجه الظهر" وبدأ يتسلق في سرعة وحيوية.

وحين انتبه رفاقه إلى ما حدث، بدأوا في الصياح وحثوه على العودة والتراجع، لكن "أكيرا" كان في هذه اللحظة قد تسلق الجرف بالفعل، صاعداً لمسافة خمسة أمتار تقريبا، يتأرجح ويتلوى بجسده مثل أسماك النهر التي تسبح في سرعة وقوة عكس التيار السريع، في نفس

الوقت الذي كانت تتساقط فيه قطرات الماء فــوق وجــوه "اوســامو" ورفاقه من خلال فتحة القنينة التي حشرها "أكيرا" تحت إبطه.

وبعد أن تسلق "أكيرا" مسافة عشرة أمتار تقريباً، شعر أن قواه قد خارت، ولكنه حرص في سريرته على ألا ينظر إلي أسفل مطلقا، وقام بلف ساقه حول حزمة أعواد النباتات التي أستخدمها بــديلا للحبــال، جاهدا في التشبث بها، وعدم السقوط.

شعر "أكيرا" بطعم عرقه المر الذي يتصبب من وجهه، يتســرب إلى داخل فمه، أحس بالرغبة في القئ من شــدة ذلــك الطعــم وتلــك الرائحة النفاذة، وفي نفس الوقــت انتــاب الــذعر ســمكة "التيرابيــا" المحبوسة بالقنينة، فأخذت تقفز وتتلوى بشكل هســتيري فــي جميــع الاتجاهات، وتنفث الزبد والفقاعات في وجه "أكيرا"، أما تلــك القنينــة المبتلة الزلقة فقد أخذت تهتز بشدة تحت ذراع "أكيرا" الذي هرب الــدم منه وصار أصفر شاحبا، وأخذ الماء داخله يتدافع في أمواج متلاحقة.

في تلك اللحظات لم يعد يدرك "أكيرا" نفسه، السبب الذي دفعه إلى ذكر تلك الكلمات، بينما كان واضحاً الصعوبة البالغــة التــي يعانيهــا "أكيرا" وهو يحاول جاهداً استخدام ذراعيه في التسلق.

أغمض "أكيرا" عينيه وهو يستشعر ذلك النهر الهادر الذي يجري داخل جسده وهو يزمجر عالياً.

تدفقت الدماء داخل عروقه مثل الفيضان لتزيد من نبضاته، لكــن تلك الدماء لم تكن تضخ خلال ذراعيه!

خارت قوى ذراعه الأيمن المتشبث بحزمة أعواد نبــات زهــرة "وجه الظهر"، فأخذ جسده يرتعش وبدأ يصدر صرخة قصيرة مكتومة.

هبت في تلك اللحظة ريح مفاجئة ناحية البحـــر، فصـــارت تلـــك الريح تهاجم ظهر "أكيرا" المتصلب، ووقف شعر رأسه إلـــى أعلـــى. أخذت أوراق عيدان زهور "وجه الظهر" ترفرف مع خبط الريح بهـــا، وعاد صوت الصفير الشجن الحزين يُسمع من مكان قريـــب للغايـــة، وسط صوت حفيف أوراق الشجر الصاخب.

حين فتح "أكيرا" عينيه، بعد أن ظلتا مغمضتين للحظـــات فـــوجئ بعيني سمكة "التيرابيا" مسلطتين نحوه!، شعر في هذه اللحظة بأن شعر جسده كله قد انتصب، فاستجمع كل قواه لكي يكمل صـــعود المســـافة الباقية دفعة واحدة دون توقف.

لم يكن يستطيع بوضعه هذا أن يمسح عرقه المتصـــبب، فأخـــذت جفونه ترمش في عصبية في حركة لا إرادية لمقاومة العرق المتســـلل إلى داخل عينيه، لكنه في الوقت نفسه بدأ يحدد بوضوح ملامـــح تلـــك الكتلة البيضاء، بعد أن كانت تشوبها هالة من الضوء المضبب، وكانت تلفح وجهه ريح باردة تندفع من خلال تجويفين عبر الصخور.

كانت تلك المقبرة المقامة في العراء قد أقيمت هنـــاك باســـتغلال التجاويف التي صنعتها الطبيعة في الجرف. المدخل إلى تلك المغـــارة يمتد طوليا بشكل منسق مستقيم، وكانت هناك أحجار طبيعية بارزة من خلال سقف المغارة، باقية دون أن تتآكل بفعل الريح وعوامل التعرية. لم يكن ذلك العمق يزيد عن متر واحد والرمال التي تفتـــرش أرضـــية المغارة الصغيرة باردة دقيقة تحوّل لونها مع مرور الزمن من الأبيض إلى الرمادي.

أحس "أكيرا" وكأن الرمال امتصت الحرارة التي تعترى جســـده، فراوده شعور غريب باللذة، كما لو كانت دماؤه تمر بعملية تطهير!

وحين أخذ نفساً عميقاً كي يمنع نفسه من الدخول في غيبوبة بسبب ذلك الشعور بالانتشاء، لمح في تلك اللحظة عدداً لا يحصى من الشعاب المرجانية المتكلسة الصغيرة، تبرز برؤوسها خلال الرمال البيضاء، بحيث يصعب على المرء تمييزها من النظرة الأولى. لكنه في اللحظة التالية أدرك أن تلك الشعاب المتكلسة البيضاء ليست إلا عظاما بيضاء نظيفة ناصعة لجثة ما غسلتها الأمطار والرياح المتعاقبة على مدى عشرات السنوات، وأزاحت عنها الأوساخ العالقة، جذب أنظار "أكيرا" من بين مواضع ذلك الهيكل العظمي جزء عظام ضلوع الصدر، التي ظهر نصفها العلوي بارزا في الرمال، وفي نهاية تلك المغارة الضيقة لمح قطعاً صغيرة من قماش مهترئ ضاع لونه الأصلي، أدرك بالكاد من ملامحه الباقية أنه لزي عسكري! أما ما كانت ملامحه الأصلية باقية من بقايا متعلقات صاحب تلك الجثة فكان ذلك الكعب السميك المطاطي الأسود، المتبقي عن حذاء عسكري.

أدرك "أكيرا" من وضع عظام الصدر تلك، أن صاحب تلك الجثة مات منكفئا على وجهه، فصار في اللحظة التالية يتفحص بعينيه عظام تلك الجمجمة تلقائيا ودون دافع معين. أدرك بحدسه أن شخصا ما في وقت ما نقل تلك الجثة من مكانها الأصلي الذي ماتت به، ووضعها فوق تلك الأرضية الحجرية المغطاة ببعض الرمال داخل المغارة، بدلا من أن تغطيها الرمال المتساقطة عند فتحة المغارة.

كان تجويفا العينين الغائرتين المظلمتين بتلك الجمجمة، يبدوان كما لو كانا يتأملان صفحة البحر العريضة من هذا المكان، وكان الضوء المنعكس عن صفي الأسنان المطبقين على بعضهما، يعطي الشعور ببقايا الحياة في تلك الجثة، لكنه في الوقت نفسه يعطي شعورا لـ"أكيرا" بالرهبة والانقباض.

إرتكز "أكبرا" بظهره إلى حائط الجرف، واستند بعضده على الحجر، ثم قام بتثبيت القنينة بدفسها بين ركبتيه، ثم قبض بيده على فوهتها. شعر وهو يحاول فتح غطاء القنينة وكأنه يسمع صوت فرقعة عضلات ذراعه المشدودة المتصلبة تدوي في أذنيه، فضغط على أسنانه لمغالبة الألم، في نفس الوقت الذي مد فيه ذراعه الآخرى ناحية الجمجمة.

كان الماء داخل الزجاجة قد انخفض إلى النصف تقريبا، ورغم قلة الكمية إلا أنه كان يشعر أنها ثقيلة وكأنها كمية من الزئبق، إلى درجة أنه أحس كما لو ان ذراعه على وشك الانفصال تماما من موضع مفاصل الكتف.

كانت سمكة الـ"تيرابيا" داخل القنينة تتنفس بسرعة في عناء ظاهر، ومن خلال زعانف الرأس التي كانت تنفتح وتنغلق مع كل نفس يخرج، استطاع "أكيرا" أن يلمح لون الدم بداخل تلك الزعانف، وقد استحال إلى أسود غامق، بينما ظهر ذلك الجزء الداخلى من الزعانف في شكل هلالي يلوح ويختفي.

كانت سمكة "تيرابيا" قد انكمشت في ركن الزجاجة وقد جحظت عيناها وتحملق في وجه "أكيرا"، ولما لم يستطع "أكيرا" إطالة النظر فيهما أشاح بوجهه هربا منهما لينظر ناحية الجمجمة. لكنه في اللحظة التالية لاحظ من خلال تلك القنينة الشفافة أن على الصخرة فتحة صغيرة تسمح بدخول إصبع يد واحدة، ولكن بعد ذلك بلحظة أخرى اختفت تلك الفتحة تحت عين السمكة التي بدت أكبر من حجمها بسبب تقعير الزجاجة.

كانت يده تحت قعر القنينة تسندها، فشعر من خـلال تلـك اليـد بصلابة الصخرة، وحاول بكل طاقته أن يسـحب أصـابعه المتجمـدة المتصلبة من تحت قاع القنينة كي يستطلع أمر تلك الفتحة الصـغيرة. وفي اللحظة التي ظن فيها أنه نجح في سحب كل أصابعه المحشـورة بين قاع القنينة وسطح الصخرة، وشرع في جذب ذراعه إلى الخارج، فوجئ بأن إصبعيه الأوسط والكبير كانا لا يزالا محشورين هناك!

أخذ "أكيرا" يحاول عشوائيا وبكل طاقته المتبقية في جسده المنهك أن يخلص إصبعيه المحشورين هنـاك، وعنـدما نجـح أخيـرا فـي تخليصهما بعد أن فقد الإحساس بهما تماما بسبب هروب الدماء منهما، نتيجة لرد الفعل اللا إرادى من الجذب المفاجئ العنيف لذراعـه إلـى الخارج... مالت القنينة على جانبها لتستند إلى الجمجمة، ولـم تسـقط على الأرض.

كرد فعل لا إرادي أيضا أخذ ذيل السمكة يخبط فـي اضـطراب وعشوائية بسطح الماء داخل القنينة، فتطايرت قطرات كثيرة من الماء اندفعت من خلال فتحة القنينة لتبلل الجمجمة. في اللحظة التالية برزت مخالب حادة على حين فجأة من خلال التجويف الغائر للعين وأخـذت تنبش في هستيريا واضحة بحواف عظام تلك العـين. وسـط ذهـول "أكيرا" من تلك المفاجأة. برز من خلال تلك الفتحـة سـرطان البحـر (كابوريا) يحرك عينيه في ذعر وذهول يمنة ويسرى بنصـف جسـده الأمامي، بينما وضع أحد أقدامه الأمامية أمام صـدره، وكـان لـون سرطان البحر بنفسجياً مائلاً للزرقة.

ولم يكن ذلك السرطان البحري وحده، فقد برز فـي نفـس هـذه اللحظة عدد من سرطانات البحر، من خلال الصخور المنتشرة داخـل

المغارة تتحرك في بطء تجاه "أكيرا" وتلوح بأقدامها ومخالبها الأمامية البنفسجية والحمراء. وفجأة.. ظهر أحدها زاحفا بسرعة كبيرة فوق الرمال مقترباً من "أكيرا".

برد فعل عكسي سريع حاول "أكيرا" الابتعاد عن الصخرة التي كان يسند إليها عضده، فسقط من حافة الجرف رأسيا لتلتقطه أعواد زهور "وجه الظهر" المتدلية الطويلة المتكاثفة لينحشر بينها.

أصيب "أوسامو" ورفاقه بالذعر والهلع وهم يشاهدونه من أسفل الجرف يسقط، ففردوا جميعا أذرعهم بحركة تلقائية محاولين تلقف جسده الذي يوشك على السقوط. لم تتحمل أعواد الزهور وزن جسده فهوى مندفعا بقوة ناحية أسفل الجرف، واخترق جسده الثقيل المندفع أذرع زملائه الهزيلة الممتدة، ليرتطم بأرض الشاطئ التي غطتها طبقة رخوة من أوراق الأشجار المكومة الرطبة المتعفنة، واستقر هناك طريحا على ظهره وسط عشب الصيف الكثيف المتشابك.

انقلب "أكيرا" في اللحظة التالية على وجهه وهو يلوي جسده ويتأوه، أخذ رفاقه ينظرون إلى بعضهم، ملتاعين، دون أن يجرؤ أي منهم على أن يمد يده ليلمسه. بادر "أوسامو" قبل رفاقه إلى مد ذراعيه كي يساعد "أكيرا" على النهوض بينما كان صوت رفيقه "شين " الملتاع يكاد يبكي، يدوي في أذنه:

"يجب أن نحمله إلى المستشفى على الفور"!

في اللحظة التالية، فوجئ " أوسامو" بلطمة قوية تهوي على وجهه فتزيحه جانبا! لقد كانت ذراع "أكيرا" الذي انتفض مذعورا ملتاعا وهو يخبط بيديه عشوائيا في الهواء، وكأنه طائر مذعور يلوذ بالفرار، ثم انطلق في اللحظة التالية يعدو بعيدا زائغ العينين، وسط نظرات ذهول زملائه.

انطلق الرفاق يركضون خلفه كي يلحقوا به. شعر الجميع وهم يركضون خلفه وكأن قوى خفية قد تدفقت حول أقدامهم تلفهم وتعيقهم. نعم لقد صارت الحشائش الكثيفة المدببة تنحر في عضلات سيقانهم الخلفية البارزة النحيلة، فتوسعهم تجريحا وتخديشا.

كان حفيف الأعشاب البرية العالي الصوت الناتج عن احتكاكه بسيقانهم يبعث شعورا بالرعب والانقباض، صار "أوسامو" ورفاقه يتمتمون بتعاويذ سحرية ليطردوا عنهم تلك الشياطين والمردة التي تحاول شدهم من أرجلهم، وظلوا هكذا حتى مرقوا من الأعشاب البرية وارتقوا ذلك الجسر المعلق المفرود فوق المجرى الرئيسي لنهر "إيري غامي غاوا"!

صاح "أوسامو" بصوت عال مناديا "أكيرا" – الذي سبقهم بمسافة إلى الأمام لكي يحثه على التوقف. لكن شبح "أكيرا" الذي كان يلوح هناك لم يلتفت للخلف.. بل اختفى عن أنظار رفاقه.

كانت حواف جبل "أوطوها ياما" الانسيابية قد بدأت تزمجر تماما مثل هدير البحر!

كانت الأمطار الكثيفة التي لم تنقطع عن الهطول منذ عدة أيام مضت قد صارت تشكل سيلا جارفا يتخلل الأشجار المتداخلة المتكاثفة التي تفترش بطون ذلك الجبل، وتنفث منها رائحة العطن النفاذة لتلك الغابة المظلمة المقبضة كي يتشبع الهواء كله بتلك الرائحة.

مع مرور الأيام، صارت تلك الغابة تكتسي بالأوراق الخضراء الجديدة، وتغيرت ملامح الجبل وصار يبدو وكأنه يقترب بخطوات حثيثة ليجتاح القرية الجاثمة تحت سفحه.

بعد أن أنهى "كيوكيتشي" وجبة غدائه نزل إلى حديقة منزله عبر الشرفة المفتوحة على درجات السلم، وقد انكمشت عيناه بتأثير ضـــوء الشمس المبهر الذي ظهر أخيرا بعد عدة أيام من الغيوم المستمرة.

كانت الغابة المتكاثفة الأشجار تحيط بالبيت من كـــل الجوانـــب، وكانت هناك زهور بيضاء صغيرة، تتشح بلون أخضر باهـــت تبـــرز برؤوسها على مدى البصر حول البيت مـــن خـــلال أوراق الأشـــجار الخضراء المتزاحمة لتلك الأشجار في بداية الصـــيف معلنـــة بدايتـــه، وكانت الثمار الصغيرة الناضجة الصفراء، تنفث عبقها النفاذ في وقـــت متزامن مع تفتح تلك الزهور، كي تجذب إليها أسرابا مـــن الوطـــاويط تملأ الفضاء بصياحها الصاخب.

وقف "كيوكيتشي" أمام البوابة المفتوحة المطلة باتجـــاه الجنـــوب، وبينما كان يتأمل بناظريه جبل "أوطوها ياما" الذي اعتاد رؤيته منذ أن وعي على هذه الدنيا، تذكر على حين فجأة مشهد أمه وهـــي تلهـــث، صاعدة ذلك الجبل وسط القصف العنيف المركز، وهي تحمـــل علـــى ظهرها أخته الصغرى التي كانت طفلة في ذلك الوقـــت، وفـــي تلـــك القرية كان الناس يطلقون كلمة "أوبّا" للتعبير عن الحمل على الظهر.

قد تكون كلمة "أوبّا" هذه قد أُطلقت كتسمية لهذا الجبل منذ زمـــن بعيد، لتكون جبل "أوبّا" بدلا من النطق الصحيح، وهو "أوطوها"، لكـــن أغلب الظن أن هذه التسمية صارت واضحة وشائعة نسبة إلـــى قيـــام الكثير من الأهالي بحمل أطفالهم الصغار، وذويهم من العجـــائز غيـــر القادرين على السير فوق ظهورهم أثناء معركـــة "اوكينـــاوا"، تـــذكر أحداث تلك الليلة حين صار يطمئن أخته الصغيرة ويبعث الشجاعة في قلبها بينما كانت تدفس رأسها الصغير وهي تكتم صوت بكائهـــا فـــي

ظهر أمها التي هددتها قائلة بأن عفريت الجبل الذي يستيقظ في الليل يصغي بأذنيه جيدا، وهو مختبئ بين الصخور ليقوم بمهاجمة أي إنسان يسمع صوته وهو يمر بالجبل!

كان "كيوكيتشي" يكبر "أكيرا" بسنتين أو ثلاث وقت تلك المعركة، ولكن جسده كان ضيئلاً جداً مقارنة به.

كان نفس الفصل من السنة حين وقعت تلك الأحداث، كان هناك طابور طويل من أهالي القرية يصعدون الجبل، وعلى ظهورهم تبدو من بعيد ظلال بارزة لهؤلاء الأطفال والعجائز يشقون طريقهم وسط أعماق الأشجار المتكاثفة، ويتذكر "كيوكتيشي" أحداث تلك الليلة وكأنها وقعت بالأمس.

رغم أن أربعين عاماً كاملة مرت على تلك الأحداث فقد كان يتذكر كل شيء بالتفصيل، بل إنه صار في الفترة الأخيرة يستعيد بعض التفاصيل الدقيقة التي كان قد نسيها خلال تلك السنوات الطويلة، فقد تذكر بعض الأماكن المحددة التي مر بها تلك الليلة.

كان "كيوكيتشي" قد خلع ثياب الفلاحة، ليصير بقميصه الداخلي، وهو يبدأ قطع الأعشاب الطويلة بالمنجل، ويجلس تحت مظلة بوابة البيت بعد العصر.

شعر على حين فجأة بظل شخص يقترب خلفه، وحين التفت ليستطلع الأمر رأى رجلين يقفان أمام البوابة وهما يراقبانه وهو يقوم بعمله.

أدرك من النظرة الأولى إحساسهما بالقيظ والإنهاك من خلال العرق الذي كان يتصبب من جبهتيهما، وحين رمق سيقانهما العارية

الخالية من الشعر التي لفحتها الشمس، والتي كانت تبرز من سراويلهم القصيرة، أحس بان هذين الرجلين ربما يكونان من اليابان الأم، وليسا من أهل الجزيرة.

بادره أحدهما:

"عفوا.. دخلنا هذا المكان دون ان نستأذن منك، غير أننا رفعنا أصواتنا بالتحية عند الباب".

كان الرجل يبدو شابا صغيرا في العقد الثالث من عمره، واصغر من رفيقه، وكان قد نزع الفوطة اللبنية اللون التي كان يلفها حول رأسه، ومسح بها العرق المتصبب من جبهته ورقبته وهو يومئ برأسه إيماءة خفيفة كتعبير عن التحية.

قطب "كيوكيتشي" عن جبينه، في حركة تنم عن عدم شعوره بالارتياح، وتجاهل الشاب الصغير، محولاً ناظريه ناحية الرجل الكبير الذي يرافقه.

أدرك من النظرة الأولى لذلك الرجل، ومن شعره الممتزج بالشيب وملامحه المتزنة الهادئة انه في منتصف العقد السادس من العمر.

كان البريق الخافت للأهداب السفلى لعينيه يثير الإحساس بمدى الإجهاد الكبير الذي يعانى منه.

بعد أن ابتسم الرجل ابتسامة أنفرج عنها ثغره بأسنانه التي تخللتها إفرازات سوداء تكلست هناك، مد يده إلى جيب صديريته وأخرج بطاقة صغيرة تحمل اسمه وهويته وقدمها إلى "كيوكيتشي".

مال "كيوكيتشي" بجسده إلى الجانب وهو في وضع الجلوس بينما أخذ يحدق في محتويات البطاقة، فوقعت عيناه في البداية على اسم محطة للبث التليفزيوني، ولكنها لم تكن محطة تابعة لجزيرة "أوكيناوا".

كان الاسم المكتوب هو "فوجي إي ياساواو" فأخذ "كيوكيتشي" يكرر ذلك في سريرته.. ولكنه لم يمد يده لكي يأخذ البطاقة من صاحبها الذي كان يمد يده بها.

كان الشاب الذي يقف إلى جوار الرجل يرسم ابتسامه ودية طوال الوقت.. إلا أن تعبيرات وجهه تحولت إلى العبوس والقنوط بعد لحظات كرد فعل لتصرف "كيوكيتشي" البارد.

أما الرجل الكبير فقد ظل يرسم ابتسامة مصطنعة– رغم ذلك– أعاد بطاقته إلى مكانها في جيبه.

انحنى الرجل برأسه في أدب جم وهو يقول:

" لقد دلنا رئيس هذا الحي إلى مكانكم"

ثم استطرد بصوت خفيض، وهو يمسح العرق عن وجهه بفوطة، ويجول بعينيه خلال الحديقة التي كانت مشذبة ومهندمة:

"إن الجو حار هنا".

وهنا خرج الشاب الصغير عن صمته فأومأ برأسه هو الآخر معرفا نفسه:

"لقد تشرفت بكم..اسمي "إيزومي"!

لكن "كيوكيتشي" تجاهل بطاقة التعريف الصغيرة التي أبرزها الشاب بينما أخذ يتظاهر باختبار نصل منجله بمسح أصابعه فوقه.

نظر الشاب "إيزومي" إلى وجه زميله "فوجي إي" وتبادل معه نظرات متسائلة، وفي اللحظة التالية دس البطاقة في جيبه ثم انسحب قليلاً باتجاه ظل شجرة مجاورة. وهنا بادر الرجل بنبرة هادئة "كيوكيتشي" قائلا:

"الحقيقة أننا جئنا اليوم نقصدك لكي نستفسر عن أمر ما".

كان وقع تلك الكلمات مؤثرا على "كيوكيتشي"، إلا أنه استمر في تظاهره بالتجاهل التام، فأدار لهما ظهره ليبدأ في سن منجله داخل الطشت الألمونيوم على صفحة حجر للجلي، وهو يسكب الماء فوقه.

هنا انطلق "فوجي إي" بلغة يابانية فصيحة يرسل تلك الجمل المتتابعة دون توقف:

"إنني أعتذر حقاً.. لإزعاجكم فجأة هكذا ودون سابق استئذان، كما تعلمون سيادتكم فقد اقترب الشهر السادس من هذه السنة، وبالتالي فإنني أعلم إن هناك استعدادات وتجهيزات كثيرة متعددة بدأها أهل الجزيرة بالفعل تحضيرا ليوم تأبين ضحايا الحرب، وبهذه المناسبة فإن محطة التلفاز التي أنتمي إليها خططت لعمل برنامج في يوم ذكرى انتهاء الحرب في شهر اغسطس (آب) ولذلك جئت اليوم إليكم لكي أرجوكم معاونتي في جمع مادة هذا البرنامج".

ألجمت فصاحة "فوجي إي" لسان "كيوكيتشي" وأفحمه كلامه فصار يشعر بالحنق والغيظ لعدم استطاعته الرد او التعقيب، وكان يبدو أن "فوجي إي" لم يلحظ رد الفعل هذا، فاستمر يقول في حماس:

"لقد سمعت أنه يوجد بهذه القرية جمجمة تطلقون عليها "الرأس الباكية".. أليس هذا صحيحاً؟

على وقع هذه الجملة، توقفت يدا "كيوكيتشي" عن سن المنجل والتفت بجسده الذي لفحته الشمس ليرمق وجه "فوجي إي" الذي استرسل قائلاً:

"إنني أرغب أن أصور في هذا البرنامج تلك الجمجمة التي تبكي وتصفر مهما كلفني ذلك، لقد صار الناس الآن على وشك أن ينسوا تجاربهم في الحرب، ولهذا السبب فأنني أود أن انقل للمشاهدين هذا المشهد من "اوكيناوا"، ولهذا فسوف أكون ممتناً لكم إذا تعاونتم معي في سبيل هذا"

كانت نبرة صوت "فوجي إي" هادئة متزنة... في نفس الوقت الذي تفيض منها الحماسة والقوة.. ثم استمر في الحديث:

"طبقا لما سمعته، يبدو أن تلك الجمجمة من بقايا جثة مقاتل من عناصر الفرق الانتحارية الخاصة، ولذلك أتمنى لو استطعت أيضاً الوصول إلى معرفة هوية صاحبها، وبهذا فعن طريق التلفاز سنستطيع الاستعلام عن صاحب هذه الجمجمة من الناس في جميع أرجاء القطر.. وبالتالي مع الوصول لصاحبها سيتمكن ذووه وأقاربه من اقامه الشعائر والصلوات على روحه ".

وهنا رد عليه "كيوكيتشي" بصوت مقتضب:

"من أين استطاع شخص مثلك أن يسمع بأمر تلك الجمجمة"؟

اطمئن "فوجي إي" إلى إنه استطاع أخيرا أن يخرج "كيوكيتشي" عن صمته فبادره:

"فيم يتعلق بذلك الأمر، عندما أطلعني موظف دار الوثائق التاريخية بالمحافظة على بعض الوثائق، كان يقف بالقرب مني طالب

جامعي من شباب القرية، يعمل بمكافأة رمزية بـــنفس الــدار واســـمه "اووشيرو"، عرفت منه تلك الحكاية بطريق المصادفة"

ثم اقترب خطوة من "كيوكيتشي". وهنا عقب على كلامه:

" يقع بيت ذلك الطالب بالقرب من هنا.. هل تعلم ذلك"؟

"نعم".

هنا رمق "كيوكيشي" موضع أقدام "فوجي إي" بنظـــرة ســـريعة، فاسترسل الأخير:

"إنني أعتزم أن أستأجره من اجل إنجاز هذه المهمة إذا اســتطعت الاتفاق معه على ذلك"

لقد ظل "كيوكيتشي" يتأمل المنجل الذي يمسك به في يـــده بضـــع لحظات، ثم رفع رأسه لينظر إلى وجه "فوجي إي" ثم قال له:

"وهل كان "أووشيرو" أيضا هو الذي أخبرك بأن صـــاحب تلـــك الجمجمة هو انتحاري من الفرق الخاصة"؟

"حسناً.. لقد حصلت على تلك المعلومة من السيد "إيشيكاوا" الـــذي يعمل رئيسا لهذا الحي، وهو الذي وجهني أيضا لكي أقـــوم بزيارتـــك وأخبرني أنك أكثر الناس معرفة بأمر تلك الجمجمة".

وهنا تمتم "كيوكيتشي" في سريرته:

"اللعنة عليك أيها الأخرق "طوكوايتشي"!

وفي الوقت نفسه كان يوزع نظراته النارية الحانقة علـــى وجـــه الرجلين الماثلين أمامه ثم قال:

" هذا لن يكون أبداً"!.

"ماذا ؟ ماذا تقول"؟

كانت علامات الحيرة والارتباك تبدو على وجه "فوجي إي" الذي لم يفهم تلك اللكنة الغريبة، فاسترسل "كيوكتشي" متحدثا بنفس لكنة أوكيناوا:

"أقول لك إن هذا الأمر لن يكون أبدا! إن تلك الجمجمة ليست سلعة للعرض، ثم أخبرني أيها الرجل ما هي الضرورة التي تدفعك إلى عرض تلك الجمجمة على شاشة التلفاز"؟

"هذا هو ما كنت أريد أن أوضحه لك. إن كل ما يعرفه أهل الوطن الأم في اليابان، هو ما يخص بالطبع قضية الانتحار الجماعي لطالبات المدارس عند جرف "هيميه يوري" خلال معركة أوكيناوا، ولا يعرفون الكثير من التفاصيل الأخرى، ومن هنا فقد رأيت إطلاع الناس في طول اليابان وعرضها على تجارب وذكريات أهل أوكيناوا، التي مروا بها خلال تلك المعركة البرية، الوحيدة التي جرت على أرض اليابان خلال الحرب"

"لن يغير من الأمر شيئاً، إذا عرف الناس عندكم ما تريد أنت إطلاعهم عليه، فإذا كنت تريد التصوير، فلتقصد مكانا آخر ولتبتعد عني".

"إنني أتفهم مشاعرك، ولكني أعتقد بوجود معنى كبير لإطلاع الناس في كل أنحاء القطر على حقيقة تلك الجمجمة الباكية".

"اللعنة..هل يجب عليّ أن أكرر عليك ما قلته مرة أخرى؟ أغرب عن وجهي بسرعة"

وبعد أن انهى جملته غمر المنجل الذي امسكه بيده (والذي انتهى من سنه) في وعاء الغسيل المعدني، ثم أخرجه من الماء ونهض واقفاً وهو يتظاهر الانشغال برفع المنجل في الهواء لكي يجف من البلل.

وهنا خرج الشاب "إيزومي" عن صمته الطويل وصاح بنبرة حادة:

"هيا بنا نغادر هذا المكان يا سيد "فوجي اي"، ليس هناك داع للتذلل له أكثر من هذا، فلنعد إلى السيد "ايشيكاوا" ونستمع منه إلى تفاصيل تلك الحكاية"

لكن "فوجي اي" شرع في تأنيبه:

"ما هذه اللهجة التي تستخدمها معي..."

وقبل أن يكمل جملته تركه "ايزومي" وبدا يسير في اتجاه البوابة! أما "كيوكيتشي" فقد رمق وجه "فوجي اي" بنظره سريعة، والذي يكبره بسنتين أو ثلاث سنوات.. وهو الوجه الذي لاحظ عليه التأسف والانكسار، ثم عاد لينظر في اتجاه آخر كي لا تلتقي عيناه بعينيه، وانسحب هو الآخر بعيداً باتجاه الحديقة الخلفية، وهو يقبض على المنجل بيده.

انحنى "فوجي اي" برأسه في تواضع جم، وهو يقول بصوت عال:

"لقد أزعجتك يا سيدي اليوم بزيارتي المفاجئة، ولكني أرجوك في النهاية أيضاً أن تراجع نفسك وتُسمعني تلك الحكاية"

رغم أن "كيوكيتشي" كان يوليه ظهره إلا انه شعر جيداً بمدى انكساره وقلة حيلته، ولكنه ظل يحتفظ بصمته وهو يتابع سيره، بينما

كان يلوح بذراعه الممسكة بالمنجل يمينا ويسارا، يقطع الأعواد لكي تتساقط على الأرض، وعلى النجيل النابت منها، تلك الأعواد التي كانت في سمك الإصبع الصغير لليد.

عند المساء وبعد أن انتهى "كيوكيتشي" من أعمال الفلاحة بالحقل.. تذكر فجأة، أمر بطاقة التعارف تلك التي تركها "فوجي اي" مدسوسةً في شق باب الحديقة الخشبي، فهب إلى هناك والتقطها واخذ يقرأ اسم "فوجي إي" على الضوء المتسرب من ناحية المطبخ ليتأكد منه، ثم دفس البطاقة في جيب سرواله الملطخ بالطين، ورشق المنجل في عمود خشبي قريب منه. وفي اللحظة التالية أطلت زوجته "ميتسو" برأسها من المطبخ، وهي تصيح به:

"يا زوجي العزيز... سوف أسبقك وأدخل الحمّام".

فرد عليها "كيوكيتشي":

"سأدخل الحمّام فيما بعد"

كان رده سريعا مقتضبا تجاهل به جملة زوجته، التي كانت تنم عنها نبرة التساؤل عما يشغله، ثم مضى خارجاً إلى العراء يقطع الطريق خلال الأشجار الباسقة، بينما كانت رائحة العرق النفاذة تفوح من جسده خلال الهواء المشبع بالرطوبة الساخنة، ومن خلفه جاء صوت زوجته وهي تصيح به:

"إن "أكيرا" لم يعد بعد من المدرسة، فإذا صادفته في طريقك أطلب منه أن يعود إلى البيت بسرعة".

لكن "كيوكيتشي" تجاهلها ولم يرد عليها، بينما كان يقطع الطريق مبتعدا بخطوات سريعة.

كان "إيشكياوا طوكوإيتشي" رئيس الحي يجلس متربعا على الحصيرة النايلون المفروشة فوق نجيل الحديقة، يحيط به عدد من الرجال، بينما كانوا يتبادلون أقداح الجعة، فلما لمح "كيوكيتشي" وهو يقترب ناحيته صاح به:

"مرحبا بك يا "كيوكيتشي".. تفضل".

كانت نبرة صوت" إيشيكاوا" التي لاح منها بداية السكر والثمالة مفعمةً بروح الود والألفة والترحيب، حينما ظهر "كيوكيتشي" على حين فجأة من بين أشجار الـ"هين بون" وبعد أن تأكد "ايشكاوا" من خلال الضوء المتسلل من شرفة البيت من أن القادم هو "كيوكيتشي".

كان صوت زفرات "كيوكيتشي" الذي يخرج من أنفه ضعيفا يكاد لا يُسمع، وقف بالقرب من الدائرة التي شكلها الرجال الجالسون متأملا وجوههم.

أما "شاكا" و"ايماهاكو" اللذان كانا يجلسان إلى جانبي "إيشيكاوا"، وكذلك "فومي أو" ابنه الذي تخرّج مؤخرا في احدى الجامعات الخاصة بالجزيرة، فقد ظلوا يحدقون بدورهم في وجه ذلك الرجل الذي اقتحم عليهم مجلس الخمر، بينما كانت وجوههم التي لفحتها الشمس، تلمع مع أشعتها التي أشرفت على المغيب.

أفسح "إيشيكاوا" مكانا بجانبه كي يجلس إليه "كيوكيتشي" وهو يدعوه:

"يالها من غيبة طويلة أيها الرجل.. هيا يا "كيوكيتشي" وتناول معنا قدحا من الجعة".

لم يكن "إيشيكاوا" قد انتبه في تلك اللحظة إلى وجه "كيوكيتشـــي" أو إلى نظرات عينيه اللتين شابهما بعض البرود والامتعاض.

كان "كيوكيتشي" و"ايشيكاوا" زميلين بنفس المدرسة الابتدائية أيــام الطفولة.

لكن ما كان يختلف فيه الاثنان أن "كيوكتشي" من أســرة ريفيــة، عاش صباه كواحد من عمال البناء والتعمير، يعمــل فــي إنشــاءات القواعد العسكرية لــ"الجيوش الصديقة" بالجزيرة، ولم يكن يتردد على مدرسته إلا لماما، وكان يقضي بقية يومه في الفلاحــة بالحقــل، أمــا "طوكوإيتشي" فقد كان في صباه واحدا من المعدودين على الأصابع في القرية من العائلات الثرية ذات النفوذ، وكان كذلك واحدا مــن ضــمن القليلين من صبية القرية ممن استطاعوا دخول المدرسة الإعدادية، وقد حدث بعد دخول المدرسة الإعدادية مباشرة أن نشبت معارك "أوكيناوا" فتوقفت الدراسة تماما بجميع مدارس الجزيرة.

رغم تقدم سن "كيوكيتشي" فقد كان جسده ضيئلاً، مما ساعده على الإفلات من التجنيد ضمن قوات الدفاع عن الجزيــرة، وظــل خــلال المعارك يجوب الجبال مع والديه، بحثا عن ملجأ للنّجاة من الموت.

أما "طوكويتشي" فقد تــم تجنيــده فــي الفــرق الإمبراطوريــة الانتحارية.. لكن أحدا لم يكن يعلم بتفاصيل ما مر بــه خــلال تلــك التجربة.

بعد انتهاء الحرب التقى الإثنان بعد غيبة طويلة داخل معســكرات الايواء الجماعية، وما شعر به "كيوكيتشي" ساعتها أنه لم يعد هناك مــا يتحدث به مع صديق طفولته.

ولم يكن هذا الأمر يقتصر على "طوكوإيتشي"، بـــل حتـــى تجـــاه والديه، فقد شعر "طوكوإيتشي" أنه ليس هناك ما يستطيع الافصاح بـــه بشكل صحيح مكتمل مهما أسعفته الكلمات والتعبيرات بعد أن مر بأيام تراكمت خلالها حقائق وأحداث رهيبة مفجعة ومحبطة.

لكن من أجل العودة إلى الحياة الطبيعية في هذه القريـــة الضـــيقة التي تحطم بها كل شيء، لم يكن هناك مناص من استغلال كل ما هـــو ممكن من وسائل وحيل.

كان "كيوكيتشي" يتوقع حدوث جدل وخلاف مع زميل طفولتـــه، فقد كان الشعور بالإرهاق والإحباط قد تملك منه تماما، ولذلك بـــرزت مشاعره وعواطفه، ولم يعد الغضب الذي يعتري صدره يظهـــر فـــي شكل واضح.

فجأة أحس "كيوكيتشي" بألم فظيع يسري خلف أذنه اليمنى، مرورا بجانب رأسه الأيسر، ومع هذا الإحساس بالألم نفذ صوت عال مـــدويا من خلال أذنه.

صار "كيوكيتشي" يضغط بإصبعه السبابة والخنصر على مؤخرة رأسه، بينما جلس القرفصاء على الأرض، وهو يصارع الألم.

في اللحظة التالية، أمسكت يد مبللة بكتفه من الخلف مع صـــوت يصيح به:

"ماذا ألم بك يا "كيوكيتشي"؟

لكنه دفع تلك اليد بكل قوته، وهو يعود ليقف علـــى قدميـــه مـــرة أخرى، مترنحاً، كان الألم قد خفت حدته بسرعة، فقد كانت هذه الحالة تهاجمه بين وقت وآخر، مثل النوبة المفاجئة.

"يا "طوكو إيتشي".. هل تحدثت مع ذلك الرجل القادم من الجزيرة الأم، والمسمى "فوجي إي" بأمر تلك الجمجمة الباكية"؟

"نعم، لقد تحدثت معه هذا الصباح حين زارني فجأة، فهل هناك ما يقلقك بشأن هذا الأمر"

"هل حقا ما ذكره بشأن إذاعة هذا الكلام في التلفاز"؟

"نعم حقا.. قال لي إنه يريد تعاوننا معه، وتوسل لي من أجل ذلك، فقلت له إن أكثر الناس معرفة بأمر تلك الجمجمة هو أنت، فهل ضايقك ذلك"

"لماذا تتصرف هكذا على هواك دون استئذاني"؟

"ماذا"؟

أحس "طوكوايتشي" هنا بأن "كيوكيتشي" لم يعد ذلك الرجل الذي اعتاد صمته وهدوءه، فحدق في وجهه بعينيه اللتين أثقلهما تأثير الخمر.

"أعني أنه بأي حق تسمح للآخرين بتصويري في التلفاز أو غيره"؟

"بأي حق وبأي إذن؟ بماذا تهذي أيها الرجل، وأي إذن هذا الذي آخذه من شخص مثلك؟

أطلق "طوكوإيتشي" تلك الجملة بنبرة غاضبة:

"إن أي فرد في هذه القرية يعلم تماما أنه ليس من حق أي غريب أن يلمس تلك الجمجمة".

"لم أقل أن أحدا سيعبث بتلك الجمجمة أو يلمسها.. إنني أقول أنه سيقوم بتصويرها وحسب".

"إنه نفس الشيء"!

"ما هو الذي تعني به "نفس الشيء"؟

ما أن أنهى "طوكوايتشي" هذه الجملة حتى انـتفض واقفـا وهـو يسكب الخمر من قدحه على أرضية الحديقة بحركة غاضبة منفعلة، ثم استند على الشجرة القريبة وهو يترنح من تأثير الخمر.

وهنا صاح "شاكا":

"مهلاً يا "طوكوايتشي"! ماذا تقصد يا "كيوكيتشي" بتلـك الحكايـة البغيضة"؟

لقد كان "شاكا" وهو ينطق هذه الجملة يشد "طوكوايتشـي" مـن طرف سرواله، بينما يوزع نظراته الحائرة بين الإثنين، محاولا تهدئـة الأمور.

أما "إيماهاكو" الذي بدت علامات الحيرة على وجهه، فقد صـار يحث "كيوكيتشي" على الجلوس:

" ماذا بك "ياكيوكيتشي"؟ إن "طوكو إيتشي" يفكـر فـي مصـلحة قريتنا حين يتحدث مع مندوب محطة التلفاز ليس أكثر".

لكن "كيوكيتشي" حدق في وجـوه الجالسـين بنظـرات ناريـة غاضبة، وهو يصيح:

" اللعنة.. ماذا تقصد بـ"مصلحة قريتنا"؟

"الحقيقة يا "كيوكيتشي" أن ذلك البرنامج سـيذاع علـى محطـات القطر كله. القطر كله يا رجل. ألن يكون ذلك نوعاً جيدا من الدعايـة للقرية"؟

لفظ "إيماهاكو" بهذه الجملة بوجه جاد وصارم.

"حتى الآن لم يكن هناك سياح يزورون قريتنا هذه، لبعدها الكبير عن عاصمة الجزيرة "ناها"، ولكن بعد شهرة قريتنا بفضل هذا البرنامج سوف يأتي الكثير من السياح من الجزيرة الأم لزيارتنا. إذا فكرت في مستقبل هذه القرية، فلن تتطور أبدا بالاعتماد فقط على الزراعة، يجب علينا من الآن بذل الجهود في مجال السياحة، ومن أجل هذا، ألا ترى إن ذلك البرنامج سيعود علينا جميعا بالخير"؟

لكن "كيوكيتشي" بصق في الأرض، وهو يصيح:

"ماذا تقصدون بمصلحة القرية؟ عليكم اللعنة! أتريدون استغلال رفات رجل مات في الحرب، في التجارة وكسب الأموال"؟

هنا تدخل "فومي أو" وأمسك بذراع أبيه، الذي احمر وجهه بالغضب، واقترب من "كيوكيتشي".. محاولا ضربه، ثم صاح:

"يا سيد "كيوكيتشي".. ليس لك الحق فيما تقول، لقد تجاوزت الحدود"

"إن الحديث عن هذا البرنامج ليس من أجل التجارة وكسب المال، لقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بغرض تعريف المواطنين في طول البلاد وعرضها بحقيقة ما حدث في معركة "أوكيناوا".

أنا أيضا حين قمت بزيارة الجزيرة الأم، عرفت أمرا لم اكن ألحظه من قبل، إن الناس هناك لا يعرفون شيئا عما حدث هنا خلال الحرب، وهو ما صدمني وأحبطني.. حين أخبرت زملائي في الجامعة بأمر تلك الجمجمة الباكية، لم يكن رد فعلهم سوى الشعور بالأسف على حدوتة من الحواديت العابرة، يجب أن نعرفهم أكثر بشأن ما حدث في معركة "أوكيناوا"... إنه واجب علينا"

"هل تريد بهذا أن ترفع من اسهمك لتخوض المعركة الانتخابية القادمة"؟

لوى "كيوكيتشي" شفتيه بهذه الجملة الساخرة، فلم يجد الأربعة الآخرون ما يردون به عليه سوى رمقه بنظرات الغضب والتوعد.

"على أية حال إنني أعترض بشدة على هذا الكلام"

نطق "كيوكيتشي" بهذه الكلمات وهو يتحدى "طوكوإيتشي" الذي استند إلى الشجرة، وهو يزفر أنفاسه التي تفوح منها رائحة الخمر.

أخرج "طوكوإيتشي" تلك الجملة الغاضبة ثم جلس على الأرض وصب لنفسه قدحا من الجعة واحتساه على دفعه واحدة، ثم ضرب الحصيرة بقبضته.

"نسي هذا الرجل ما فعلته من أجله.. يا له من ناكرٍ للجميل"

"لا تتعجل. لا يمكنه أن يفعل شيئا"

"إن "كيوكيتشي" من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن تتكهن بما سيقدم عليه من حماقات، فقد يقوم بإثارة عواجيز القرية، ويدور هنا وهناك يثرثر من أجل إيذائي، فتصير هناك من الأمور ما يسبب لنا الإزعاج والقلق، ويجب عليّ أن أسارع بتنبيه السيد "فوجي اي" ليأخذ حذره"

أومأ "طوكوايتشي" برأسه موافقا على كلام زميله، ثم زعق غاضبا يطلب من نسوة البيت إحضار المزيد من الخمر على وجه السرعة.

صار "كيوكيتشي" يرغى ويزبد، ويتمتم:

"لقد تفاقمت الأمور".

كان ذلك بينما كان يقطع الطريق علـــى مهـــل مغـــادرا بيـــت "طوكوايتشي" من خلال الطريق الجديد المؤدي إلى مصب نهر "إيـــري غامي غاوا".

حتى ذلك الوقت، لم يكن هناك أي من أهل القرية ممـــن ســـعوا بشكل إيجابي، في سبيل تعريف الآخرين من الأغراب في القرية، بأمر تلك الجمجمة الباكية.

السبب في ذلك، هو خشية أهل القرية من غضب جيل المحاربين، من الباقين على قيد الحياة، لأن مجرد الخوض في ذكر التفاصيل قـــد يثير المشاعر، كما أن صوت الريح الحزين الصادر من المقبرة، حين كان يتردد في أرجاء المكان، ويراود الآذان، كان يتسبب فـــي إثـــارة مشاعر الحزن والأسى في صدور الناس، ويدفعهم إلى عدم الرغبة في نبش الماضي، وترك الرفات ساكنة في مكانها.

في تلك القرية التي كان يحذر عواجيزها، مـــن مجـــرد الإشـــارة بالأصابع إلى مكان تلك المقبرة، خشية حدوث مكروه ما، كان هنـــاك من أهلها أيضا، من يتجنبون مجرد الذهاب للتطلع إلى تلك الجمجمـــة المنسية، التي استمرت سنوات طوالاً في مكانها بالعراء ترقب البحـــر عن بعد، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُثار فيهـــا الجـــدل حـــول استخدام تلك المقبرة للسياحة والفرجة.

كانت الغابة المتكاثفة الأشجار على جانبي الطريق، تمد فروعهـــا وأغصانها لكي تتشابك وتصنع ما يشبه السقف، وهو السقف الذى ألقى بظلال ثقيلة عشوائية فوق صفحة الاسفلت.

وسط ذلك السكون المطبق، دوى فجأة صوت أزيز متألم لحشــرة من حشرات الجراد الأسود، يبدو أنها هوجمت مــن خنفســاء كبيــرة الحجم. توقف "كيوكيتشي" عن السير وتطلع بعينيه نحو تلك الاغصــان المتشابكة، لمح من خلال تلك الأغصان، على ضوء القمر الذي أضاء السماء الصافية، اثنين من الوطــاويط الســوداء، يــدوران مشــرعي الأجنحة، وكأنها رايات سوداء مرفرفة، كان صوت خبطات الاجنحــة يدوي في الفضاء.. وبعد ذلك بلحظات اختفى تمامــا صــوت حشــرة الجراد.

شعر "كيوكيتشي" بجسده المتعب المتصبب عرقا، برعشــة بــرد تداهمه، ولمح من مكانه دربا ضيقا ممتدا عن بعد من خلال الكــوبري العلوي للطريق، ومن خلال الظلام لمح حشرة من حشــرات اليــراع المضيئة، تطير في عشوائية، تقطع الدرب الذي لــم يكــن مرصــوفا بالاسفلت، وإنما كان من الحجر الجيري الأبيض.

وكأنما كانت تلك الحشرة مرشــدته فــي الطريــق، فقــد ســار "كيوكيتشي" في أثرها مهتديا بضوئها!

بعد أن تقدم خلال الدرب عدة خطوات، لمح عدداً هائلا من تلــك اليراعات المضيئة، تتجمع عند الجذور النافرة للأشجار الضخمة علــى جانبي الدرب، وتتساقط فوق بعضها البعض.

كان هناك سرب من تلك اليراعات المضيئة ينساب ساقطا باتجــاه الأرض، عبر منتصف ذلك الجرف العالي، وكان ذلك السرب عنــدما يصل إلى الأرض يعود فيصعد إلى أعلى في هدوء متجها مرة أخرى إلى جذور الأشجار. رأى "كيوكيتشي" علــى هــدي تلــك الأضــواء

الفسفورية، الخافتة ذلك اللمعان الأبيض الباهت الصادر من الجمجمة الباكية.

هكذا صار "كيوكيتشي" يقف تحت ذلك الجرف بعد غيبة سنوات طويلة، وشعر انه لا يستطيع ان ينسى ذلك الإحساس بالرعب الذي انتابه حين سمع لأول مرة صوت ذلك الصفير والبكاء. ولأنه لم يكن يزور هذا المكان كثيرا، فلم يكن قد سمع ذلك الصوت إلا مرات معدودة.

لكن لان ذلك الصوت صار يتلبس صدره من الأعماق.. فقد كان يخيل إليه بين حين وآخر أنه يعود ليتردد صداه داخله على حين فجأة، فيدفعه إلى الإشراف على الجنون من فرط الخوف والرعب.

بينما ظل هكذا يتأمل ذلك الضوء الأبيض الشاحب المنصب على تلك الجمجمة، خُيل له أنه بدأ يسمع صوت ذلك النحيب، يرتفع رويدا رويداً .

أغلق "كيوكيتشي" جفنيه، وأخذ يتذكر أحداث المرة الاولى حين جاء لزيارة هذه المقبرة الموجودة بالعراء.

كان "كيوكيتشي" يحاول الإسراع في السير بينما كانت سيقانه على وشك الانزلاق في الطمي الكثيف، في ذلك الطريق الذي يتخلل أشجار الـ"مانجلوب" المتكاثفة، والمؤدي إلى مصب نهر "إيري كامي غاوا".

كان صوت " يوشى اكى" والد "كيوكيتشي" يناديه ويعنفه من بعيد، من الجهة الأمامية لتأخره وتلكئه في السير كعادته، كان الصوت مكتوما متحشرجا، وضوء القمر المتسلل من خلال أوراق أشجار الـ" هيروغي" المتكاثفة المتألقة، ينعكس على صفحة الطين الزلج المفروش

على الأرض، وكانت ثمار أشجار الـ" هيروغي" المتدلية هنا وهناك تبدو بظلالها كأبراج قصيرة صغيرة، تضفي كآبة وانقباضاً على المكان.

كان "كيوكيتشي" يغالب الشعور بالقيء من الرائحة النفاذة للغازات المنبثقة من تحت أقدامه، فعدل من وضع القفة التي حملها فوق ظهره محاولا متابعة السير.

مر أكثر من شهر منذ نزول الجيش الأمريكي على سواحل "أوكيناوا "، وكانت المواد الغذائية قد شارفت على النفاذ.

بعد توقف قصف مدفعية الأسطول الأمريكي الذي استمر طوال النهار، خرج أهالى القرية من مخابئهم بالكهوف والمغارات ليحصلوا على بعض جذور البطاطا، وأعواد قصب السكر من الحقول القريبة، استطاعوا بالكاد مقاومة الجوع الذي عانوا منه خلال الاختباء، وكان من بين هؤلاء "يوشى اكى" وابنه "كيوكيتشى" اللذين استغلا ستار الليل للتسلل بخطى سريعة إلى الحقول القريبة من ساحل البحر، وهي الحقول الضيقة المتواضعة، ليخرجا من الأرض بعض جذور البطاطا الصغيرة النحيلة، التي لا يتجاوز سمك الواحد منها إصبع السبابة، ثم عادا بسرعة يشقان الطريق نحو المغارة.

كان الاثنان يشعران بالقلق الشديد والخوف مـِن أن يفشلا في العودة إلى الأم والأطفال الصغار، الذين كانوا ينتظرونهم في أحد الكهوف ببطن الجبل قبل ان يطلع الفجر.

كان "كيوكيتشي" يسعى جاهدا في السير خلف أبيه الذي التزم الصمت حتى لا يضل الطريق، وكان الطين الذى انغرست به ساق

"كيوكيتشي" حتى الركبتين رخوا، حتى أنه أحس كما لو كان الطين يشد ساقيه، وكأنه يد ميت تعفنت جثته!

في منتصف الطريق كاد "كيوكيتشي" ينكفئ على وجهه، وفي هذه اللحظة داهمت خياشيمه رائحة حمضية نفاذة من الطين تشبه رائحة الامونيا، جعلته يصدر صرخة قصيرة.. فشعر بالخزي وهو يرمق ظهر أبيه.

هنا تنفس "كيوكيتشي" الصعداء حين أدرك أن عيني أبيه الحادتين لم تقعا عليه، فبلع ريقه الذي امتلأ بطعم الطين.

أما الاب فقد ظل ساكنا لا يبدو عليه الارتباك وهو يجول ببصره في أنحاء المكان.

كاد "كيوكيتشي" أن ينادى على أبيه، لكنه منع نفسه في آخر لحظة بعد أن خشي وجود الأعداء بالقرب من المكان، كبح صوته الذي كاد يمر خلال حنجرته.

كان يميز بأذنيه صوت تنفس جنود الأعداء، وهم يضعون أصابعهم على زناد البنادق، بينما اختفوا في ظلال أشجار الـ"مانغلوب" المتكاثفة.

كبح رغبته في الاسراع بالعدو، هربا فظل في وضعه غير الطبيعي يضع حمل جسده كله على ساق واحدة غُرست في الطين، بينما أخذت عيونه وحدها تتحرك في كل الاتجاهات.

في هذه الأثناء، كان صوت الماء الذي ينساب خلال جذور أشجار الـ"هيروغي" يرتفع شيئا فشيئا، وكانت ظلال الأشجار حين تتحرك،

تمرق من خلالها خيوط الضوء، وتــوحي وكأنهــا جنــود الأعــداء يتحركون هنا وهناك، فتوقع "كيوكتشي" بين لحظة وأخرى أن يضـــئ الظلام بومضات الطلقات النارية وهي تمرق من خلال سيقان أشـــجار الــ "مانغلوب" المتشابكة.

هنا نزل "كيوكيتشي" بخصره إلى أسفل في وضع اســتعداد كـــي ينطلق هاربا في أية لحظة.

في اللحظة التالية لمح "كيوكينتشي" ذراع أبيه، وهو يتحــرك فـــي حذر وبطء.

استغرق "كيوكيتشي" بعض الوقت، حتى أدرك أن أباه يشير إليـــه لكى يبدأ التحرك. أخرج "كيوكيتشي" ساقه من أعماق الطـــين، وأخـــذ يتقدم في حذر حتى صار إلى جواره، وحين نظر في الاتجـــاه الـــذي يحدق فيه أبوه.. استطاع أن يميز خيالاً أسود.

بعد لحظات استطاع "كيوكيتشي" أن يميز ذلك الخيال. أجـــل لقـــد كان جثة منكفئة على وجهها، لأحد الجنود، انجرفت إلى ذلك الجـــدول الصغير الذي ينساب خلال سيقان أشجار الــ"هيروغي" الباسقة بعد أن قذف بها مد البحر من جهة الساحل، وكان يبـــدو أن صـــاحب الجثـــة جندى صغير السن، ومن ملابسه العسكرية أدرك أنه أحد أفراد الفـــرق الانتحارية.

فجأة جاء صوت أبيه وهو يقول له:

"احمل هذا"

في اللحظة التالية وجد قفة تعتلي ظهره!

اقترب الأب حذرا من الجثة الطافية، ثم لف ذراعيه حولها من الخلف، وشبك يديه فوق صدرها، وصار يجذبها خارج الطين، وبعدها نجح في حمل الجثة على ظهره.

اندهش "كيوكيتشي" من سلوك أبيه، واخذ يحدق في وجهه الذي أخذت تتراقص فوقه ظلال الاشجار خلال ضوء القمر.

شرع الأب في السير بجسده المنغمس في الطين، وهو يحركه بقوه يمينا ويسارا كي يستطيع شق طريقه. تبع "كيوكيتشي" والده من الخلف، تملأه إثارة بالغة، وهو ينظر إلى طرفي حذاء الجندي الميت اللذين كانا يشقان خطين خلال الطين، مثل ثعبانين يزحفان على الأرض، بينما كانت تلك الجثة تبرز خلال الظلام فوق ظهر جسد أبيه القصير الضئيل.

وأخيرا استطاع الأب أن يصل إلى أسفل الجرف تاركا مستنقع الطين خلفه، والذي كان مكدسا بأشجار الـ"مانغلوب" الباسقة المتكاثفة.

كان الجرف عاليا شديد الوعورة في عيني "كيوكيتشي". نفذ الأب إلى درب ضيق يربط البحر بالقرية، ويسير بحذاء النهر، وهنا ظهر عدد كبير من سرطانات البحر تجرى مذعورة في كل الاتجاهات محدثة صوتا عاليا خلال الأعشاب البرية المتكاثفة على جانبى الدرب، وبين وقت وآخر، كانت تظهر في الفضاء بعض حشرات اليراع المضيئة، تطير هنا وهناك وكأنها طلقات الإضاءة الليلية.

كلما مرق الإثنان عبر بعض تجمعات الأشجار، كان ضوء القمر يكشف جسديهما تماما.

أخذ "كيوكيتشي" يغالب الإحساس بالآلام التي بدأت تنتابه في خصره وظهره لاستمراره في السير منحنياً إلى الأمام لفترة طويلة، في نفس الوقت الذي تملك فيه الرعب والقلق منه تماما.

إلى هذه الدرجة كان السير في مناطق العراء، تحت ضوء القمر مبالغا في خطورته، وفي نفس الوقت لم يكن "كيوكيتشي" يضمن النجاح في الوصول إلى المغارة خلال هذا الظلام، حتى لو بدأ الركض من الآن بكل سرعة وقوة.

بينما كان "كيوكيتشي" يوزع نظراته بين الجثة المحمولة فوق ظهر أبيه، الذي يشق الطريق صامتا وسط حفيف الأوراق والأعشاب، والصوت الذي يصدر من حركة سرطان البحر، وبين السماء، أحس أن الضوء الذي أخذ يزداد شيئا فشيئا، هو نوع من خداع البصر!

أخيرا، توقف أبوه عن السير عند مكان مفتوح بالقرب من مصب النهر، حيث لاح على البعد ظل باهت لبارجة أمريكية، هناك عند تلك الستارة الخفيفة الزرقاء اللون للسماء.

انكمش "كيوكيتشي" وهو يتوقع في أية لحظة أن تنهمر نيران المدافع الرشاشة الثقيلة فوق رأسيهما.

لكن ها هو ذلك الأب الذي كان دائما ما يصفه بالجبن من فرط حرصه، يستحيل في نظره شجاعا يؤمن بكلمات جنود القوات الحليفة التي تقول بأن عيون الجنود الأمريكيين لا تميز في الظلام!، فقد شرع الأب في الظهور بالعراء بحركة سريعة واثقة، وهو يحدق باتجاه قمة الجرف.

حين رأى "كيوكيتشي" أباه يبدأ تسلق الجرف وهو يجر تلك الجثة الثقيلة خلفه عبر الدرجات الحجرية المثبتة بالجرف، بدأ يدرك أخيراً مغزى سلوكه الغريب.

أجل، لقد كان يزمع حمل الجثة إلى تلك المقبرة المفتوحة في العراء بمنتصف الجرف، المقبرة الموجودة بالقرية منذ زمن بعيد، لقد أسر قلب "كيوكيتشي" مشهد أبيه وهو يتسلق الجرف الوعر بأقدام ثابتة، واثقة لا تدل على الرعب والفزع، أنزل القفة التي يحملها على ظهره إلى الأرض واندفع بسرعة مرتقيا درجات السلم الحجري، ليحمل ساقي الجندي الصريع بين ذراعيه.

منذ الوهلة الأولى، اندهش "كيوكيتشي" من ثقل هاتين الساقين، فقد تشبع الحذاء الجلدي الطويل، والثياب العسكرية الخاصة بطياري الفرق الانتحارية بكمية كبيرة من الطين ومياه البحر، حتى أن ثقل وزن هاتين الساقين كان يوحي بأنهما مثل يدين تشدان حاملها وتجذبانه عنوة نحو غياهب الأرض. وفي نفس تلك اللحظة أحس "كيوكيتشي" بأنه لا يستطيع أن يفهم السبب الذي يدفع أهل القرية إلى وضع الجثث في ذلك المكان المرتفع المفتوح أعلى الجرف.

قدر "كيوكيتشي" ارتفاع الجرف بحوالي ثلاثين مترا، وكانت مساحة آخر درجة من درجات ذلك السلم واسعة تقرب من الثلاثة أمتار المربعة، وحين توقف الأب عن الصعود، أبعد "كيوكتشي" يديه عن ساقي الجثة.

وحين استدار للخلف شاهد بانوراما واسعة مفتوحة تمتد هناك أسفل الجرف لم يرها من قبل.

كانت أشجار الـ"مانغلوب" المتكاثفة بظلالها السوداء تغطي ذلك المثلث الذي يحيط بمسار النهر، وكان النهر المنفصل لفرعين يلتقيان عند المصب، ويؤلفان فرعا واحدا، يصب في بوغاز صغير متصل بالبحر.

كانت السماء مضيئة على ضوء القمر لا يعيق ضياءها شيء، وحينما أدرك "كيوكيتشي" ذلك الأمر أخذت ركبتاه ترتعشان بشده خشية ان تلحظه وأباه عيون الأعداء، وهما مكشوفان هكذا دونما أي ظل أو غطاء.

دقق الأب مليا في المقبرة المكشوفة، دون ان يعطي اهتماما لتلك البانوراما المفتوحة على البحر والنهر.

الرمال البيضاء النظيفة الناصعة الباردة مفروشة وسط مجموعة من الأحجار الخضراء اللون.

في اللحظة التالية شرع الأب في إنزال الجثة عن ظهره إلى الأرض، ثم بدأ في خلع زي طياري الفرق الانتحارية المشبع بالطين عن جسد الجندي الصريع، في نفس الوقت الذي أخذ فيه "كيوكيتشي" يراقب بعينيه سلوك أبيه وهو مشدوه.

قام الأب بنزع كل الملابس حتى الجوارب، ثم أخرج خرقة قماشية من عبه، وصار يمسح بها جسد الجندي في عناية وتؤدة، حيث بدت الجثة نظيفة لامعة، وهي ترقد فوق الرمال البيضاء الصافية.

كان الجسد النضر الشاب يبدو شاهق البياض في عيني "كيوكيتشى"، واستنتج أن صاحب هذه الجثة ربما يكون قد سقط بطائرته المقاتلة في البحر، خلال هجوم الأمس بعد أن فشل في

الارتطام ببارجة الأعداء. كان ذلك الجسد، ينم عن أن صاحبه لم يتعـد سن العشرين، وكان خاليا من أية جروح ظاهرة، كما إن رائحة العفـن لم تكن تفوح منه على الاطلاق.

شعر عانته المتكاثف البارز من جسده النحيل الذي لم يفقد انسيابية خطوط تقسيمه، لامعا نضرا شد انتباه "كيوكيتشي" بقوة، وهنـا أطـل "كيوكيتشي" بوجهه من خلف ظهر ابيه ليطالع وجه الجثة. كان وجـه الميت جميلا بشوشا. فقد كانت الجثث التي شاهدها حتى الآن معظمها متعفن منتفخ يتجمع حول سوائلها المتعفنـه المتسـربة مـن الجـراح المفتوحة أسراب الذباب، ومقارنه بتلك الجثث إندهش "كيوكيتشي" مـن مشهد ذلك الوجه الصبوح، حتى أنه ارتسمت على وجهـه علامـات الارتياح من فرط شعوره بالإعجاب والدهشة الشديدين.

لكن ذلك الإحساس تبدل بعد لحظات ليصبح شعورا بالانقباض فقد خيل لـ"كيوكيتشي" الذي أسند وجهه بكفي يديه، وهو يتأمله بأن يـدي هذا الصريع تكادان تتحركان وتمتدان اليه.

بعد ان انتهى الأب من تنظيف التعاريج الدقيقـة لأذن الصـريع، وكذلك جفون العين من الطين الذي علـق بهـا، أراح تلـك الـرأس المغمضة العينين في تؤدة لتتوسد الرمال.

وهنا اكتشف "كيوكيتشي" أثرا لاختراق رصاصة خلال الصـدغ الأيسر للصريع، فنادى أباه بصوت خفيض:

"أبي"

لكنه لمح في نفس اللحظة علامات العناء والإرهاق على وجه أبيه فغالبته الدهشة. كان الأب يجلس على ركبتيه ويضـرع فـي خشـوع

ضاما كفيه يتمتم بدعاء ما، ودموعه تسيل من عينيه، أما ذلك الصريع الشاب المسجى على ظهره فوق الرمال، فقد كان يبدو واضحا من ملامح وجهه ومظهره أنه من أبناء الجزر الأم لليابان.

ظل "كيوكيتشي" يسائل نفسه عن سر بكاء أبيه، فأشاح بوجهه بعيدا حتى لا يحرج أباه، وشغل نفسه مرتبكا بالتطلع في وجه الجندي الصريع.

أخذ ينقل نظراته في بطء من جذع القتيل الأسفل، مرورا إلى أعلى حتى منطقة الوجه، وفي تلك اللحظة لاحظ وجود جسم بارز اسود ذي بريق محشور بين الصخور الخضراء، فانتابه هاجس ما.

لم يتردد "كيوكيتشي" طويلا قبل أن يمد يده تلقائيا ناحية ذلك الجسم الغريب، لكن أباه انتفض واقفا فجأة فسحب "كيوكيتشي" يده الممتدة بسرعة كبيرة، وتظاهر بأنه يمسح كف يده المبتلة بالعرق، فوق فخذه، وذلك في ارتباك ظاهر.

فجأة صاح الأب بصوت مسموع آمر:
"حسنا، فلنغادر المكان"

قال ذلك وهو يؤدي الصلاة صامتا أمام الجثة، ثم بدأ ينزل درجات السلم الحجرية بخطوات قصيرة وسريعة، وكان الضوء الذي انتشر في اتجاه خط الأفق بالفعل قد غيّر لون السماء من اللون الصافى المائل إلى الخضرة، إلى اللون الذهبي، ولم تكن تبقى في سماء الفجر المفروشة فوق الجزيرة سوى بعض النجوم القليلة. احتار "كيوكيتشي" من ذلك الجسم الأسود البارز، وفيم يمكنه أن يفعله، ولكن رغبته في العبث بأى شيئ خمدت وانطفأت في لحظة واحدة، حين التفت الأب

بوجهه وهو يحدق فيه بنظراته الحادة، لم يجد "كيوكيتشي" أمامه، سوى ان يتبع أباه نحو أسفل الجرف صامتا، وبخطى سريعة. شعر الاثنان في جسميهما كله ببقعة فضية اللون تنطلق من اتجاه البحر متجهة نحوهما بسرعة رهيبة وهى تتلألأ في الفضاء، فصارا يركضان باتجاه الجبل في عجلة كالمجانين، وقبل أن يبلغا نصف المسافة إلى ذلك الجبل، كان قصف مدفعية الأسطول قد بدأ. كان صوت هدير الدانات وهي تمرق في الفضاء عاليا فوق رأسيهما يهز قلبيهما، فظلا ينتقلان بسرعة كبيرة بين الأشجار المتفحمة حتى وصلا أخيرا إلى الجبل، وشرعا في صعوده.

مع تفريغ الهواء الكبير الذي خلَّفته قنبلة من مدفعية الأسطول انفجرت في الخلف طار "كيوكيتشي" بعيدا إلى الأمام، وانكفأ على وجهه عند مدخل مغارة ذات انحدار كبير. ومن داخل تلك المغارة ظهرت أمه تعدو بسرعة في استقبال الاثنين، وأسرعت باحتضان ابنها "كيوكيتشي" وهي تصرخ صرخة حزينة.

شعر "كيوكيتشي" بأمه ترفعه عن الأرض، وأن صدره مبتل بشيء ما دافئ لزج، فخرجت من فمه صرخة عفوية. لقد أدرك بعد لحظات ان ذلك السائل اللزج لم يكن دما، وإنما بعض الماء الراكد الممزوج بالطين بين الصخور، فجلس دون حراك على مقعدته، وقد خارت قواه تماما.

بعد أن تأكد "كيوكيتشي" من خلو جسده من الجراح، صار يهتف مناديا أباه، بينما خرجت الأم مذعورة من المغارة، وهى تبحث عن زوجها.

كان الأب هناك بالقرب من مدخل المغارة، خلف صخرة من الصخور، يصرخ ويئن، وهو يمسك ركبته المحطمة.

صرخت الأم صرخة مدوية، وهي ترى زوجها على هذه الحال، ثم فكت عظام الركبة التي زال الجلد واللحم عنها، تلمع تحت الخيوط الأولى لشمس الصباح، فقام "كيوكيتشي" وأمه بحمله من تحت إبطه وأدخلاه على عجل إلى المغارة وانزلقوا جميعا داخلها.

وسط الظلام الدامس، كان صوت تأوهات الأب المكتوم يُسمع بين وقت وآخر، في نفس ذلك الوقت كان "كيوكيتشي" يستشعر أنفاس أخته الصغيرة في قفاه من الخلف، حيث خلدت أخيرا إلى النوم بعد أن ظلت تبكى لفترة.

أدرك "كيوكيتشي" أن ثمار البطاطا التي أحضرها هذا الصباح سوف تنفد خلال يومين على الأكثر، أجل فقد طارت القفة بمعظم ما كان فيها من شدة الانفجار، وكان يبدو أن المغارات الموجودة بالمنطقة المحيطة قد تم اكتشافها، حيث أن القصف أخذ يزداد تدريجيا هناك مع مرور الأيام، لكن "كيوكيتشي" كان يعلم تماما أنه إذا كان لزاما عليه ان يقود الجميع إلى مخبأ آخر، فسيكون من الضرورى جمع المزيد من المواد الغذائية في أسرع وقت وتخزينها. نادى "كيوكيتشي" على أمه:

"أماه"

"هه"

تبادر إلى أسماعه صوت ذلك الرد من ناحية الظلين الملتصقين ببعضهما هناك، فلم يكن "كيوكيتشي" يميز خلال الظلام الدامس ظل أبيه من ظل أمه.

"إلى متى يجب علينا أن نظل هنا بحق السماء؟ ألا نرحل إلى أعماق الأحراش الموجودة حول مدينه "تاها"؟

"لا بأس، ولكننا لن نستطيع السير وأبوك مصاب بذلك الجرح"

"إذا لم نسرع بالخروج من هذا الكهف فسوف نموت جميعا، دعيني أحمل أبي"

لكن الأم لم ترد بشيء على اقتراح ابنها.

حين مد "كيوكيتشي" يده ليتحسس سطح الحجر المفرطح تحت الوسادة، استطاع أن يصل إلى مكان الصرة القماشية الموجودة بين السلة الخيزران والقدر، فأسرع بفك ربطة الصرة، وبعد أن أخرج ما بداخلها، وضعه فوق الحجر، وضم كفيه في خشوع، ربط قطعة القماش حول خصره ونهض واقفا.

"ماذا تفعل بحق السماء"؟

"سوف أذهب لإحضار المزيد من ثمار البطاطا".

حاولت الأم التي أصيبت بالدهشة أن تمسك بتلابيب ابنها، لكنه انزلق من يدها وخرج من المغارة هابطا الطريق الجبلي وسط الظلام.

كانت الحقول القريبة من الساحل تمتد في شريط ضيق، وتكثر بها الأحجار والزلط، ولذلك فقد كان من الصعوبة بمكان، الحفر في تلك التربة بأعواد من الخشب، فاضطر "كيوكتشي" أن يبدأ تقليب الأرض بيديه العاريتين.

بعد فترة قصيرة من بدء عمله، انقصفت بعض أظافر يديه، ومع ذلك لم تكن هناك فسحة من الوقت للمعاناة والألم.

استطاع بالكاد إخراج عدد قليل من ثمار البطاطا، وقام بلفها في الصرة، ثم أسرع الخطو عائدا باتجاه المغارة. كان ضوء القمر الذي تسلل عبر أشجار الـ"منغلوب" يترك بقاعا مضيئة تتراقص فوق صفحة الأرض الموحلة، وكان "كيوكيتشي" يشعر أثناء ذلك بأن ظلا ما يتبعه، فبدأ يركض بكل قوة وسرعة دون أن ينظر خلفه.

بعد فترة من الوقت، أحس أخيرا بأن ذلك الظل قد اختفى، لكنه بعد أن وضع يديه على ركبتيه، وكتم أنفاسه المضطربة، ورفع وجهه إلى أعلى، رأى أمام عينيه جمجمة تسير وبياضها يلمع.

قفز "كيوكيتشي" إلى الخلف مذعورا فسقط على مقعدته... مع ذلك فقد إستطاع بالكاد أن يحبس صرخة كادت تفلت من حنجرته.

أدرك بعد لحظات، أن ما شاهده هو قوقعة بيضاء كبيرة حلزونية على شكل طفل صغير، يحملها حيوان "أم الخلول" ويسير بها، فظل يراقب "أم الخلول" وهي تمضي بالعرض أمام عينيه، متهادية حتى غابت بعيدا، بينما كان يحبس أنفاسه.

عندما خرج أخيرا من دغل أشجار الـ"مانغلوب"، كانت السماء، ناحية الشرق، قد تبدل لونها تماماً.

كان "كيوكتشي" الذي ركض في الدرب بحذاء النهر، بينما كان يختفي بين مسافة وأخرى خلف الأشجار، يسعى في الوصول إلى الطريق المتجه إلى الجبل، وعندما وصل أخيرا إلى ذلك الطريق توقف عن الركض وجلس القرفصاء داخل حرش من الأعشاب التي انزلقت إليها قطرات الندى، وهي تنضح برائحة الخضرة النضرة المنعشة.

هنا قفز إلى خياله بوضوح منظر جثة ذلــك الجنــدي الصــريع، عندما كان "كيوكتشي" يتردد على مدرسته القومية... كان حلمه، وحلم كل رفاقه من الصبية، ركوب الطائرة المقاتلة، وكــان الجميــع حــين يستمعون إلى كلمة "فرق الطيران البحريــة"، ذات الوقــع الســحري المؤثر، يتخيلون أنفسهم يلبسون زي الطيارين ويحبسون أنفاسهم.

تخيل "كيوكيتشى" أن يكون ذلك الشاب الصريع طيارا ماهرا فذا، حيث لم يكن بجثته جرح واحد ظاهر.

أحس "كيوكيتشي" بشعور جارف يدفعه نحو الرغبة في الــذهاب مرة أخرى لرؤية الجسد المسجى لذلك الشاب فوق الرمال.

كان هناك أمر آخر يشعل حماس "كيوكيتشي" بشدة.. أجل.. كانت الرغبة في رؤية الجسم الأسود البارز من بين الصخور الخضراء.

في ربيع العام المنصرم كان "كيوكيتشي" يتباهى أمام زملائه من الصبية بقلم حبر، قال إنه هديته بمناسبة دخول المدرسة.

أخرج لفافة من الورق أمام زملائه المحيطين بــه، وفــي تلــك اللحظات التي بدأ فيها "كيوكيتشي" يكتب حروفا بخط بائس تعس، أخــذ يحاول كبح جماح رغبة جارفة اجتاحته، تدفعه إلى اختطاف ذلك القلــم من يده، وقذفه إلى الأرض لكي يتحطم، لكنه عاد ليشــعر بالإحبــاط الشديد لعدم استطاعته الإقدام على ذلك.

كانت لحظة واحدة تلك التي لمح فيها ذلك الجسم البــارز، وهــو يشعر بالقلق والتوتر من أن تلمحه عيون أبيه، وهو منهمك في تنظيف الجثة، ولم يكن لدى "كيوكيتشي" أدنى شك في أن يكون ذلــك الجســم الأسود البارز، هو نفسه ذلك قلم الحبر الأسود! وربما كان هــذا هــو

السبب الحقيقي الذي دفعه إلى تحمل الأخطار دون أن يفكر في أي شيء.. فقط كان كل ما يريده هو الحصول على ذلك القلم بأي ثمن.

ظل "كيوكيتشي" جالسا القرفصاء، مترددا في اتخاذ القرار بالانطلاق نحو أعلى الجرف، وفجأة شعر بإحساس ملح بالتبول، فنهض واقفا وتوجه نحو شجرة وارفة باسقة بالقرب منه، وتبول خلفها وفجأة توقف قلبه عن النبض حين ارتطم جسده بجسم أحد طيور الوطواط الكبيرة الحجم، صفع وجه "كيوكيتشي" بجناحه ثم انطلق مختفيا في السماء، التي غلب عليها اللون الأسود المائل للخضرة! أخذ "كيوكيتشى" يطرقع بلسانه حانقا، وهو يتابع ذلك الوطواط الذي مضى بعيدا، ثم مسح يديه المبتلتين في جذع الشجرة، وتوقف متسمراً، وهو يحدق في جذور الشجرة النافرة بطريقة لا شعورية.

ظهر أمام عينيه مدخل المقبرة التي فغرت فاهها، بعد أن سقطت الصخرة التي كانت تغطيها وتحطمت.

استطاع أن يميز خلال الظلام ملامح باهتة لجمجمة وعظام ساق، برزت من فوهة جرة كبيرة موضوعة داخل المقبرة.

خيل إليه في تلك اللحظه، أن شخصا ما يهتف به، فقام "كيوكيتشي" بإخفاء الصرة في حرش من الأعشاب المتكاثفة، وانطلق يعدو باتجاه مصب النهر.

كان القمر الأبيض قد بدأ الهبوط بعيداً كشبح يندثر في سماء الفجر. أثناء ذلك كان "كيوكيتشي" قد ارتقى درجات السلم الحجرية حتى وصل إلى منتصف الجرف، حيث مكان المقبرة، وحينما وصل إلى البسطة الحجرية الأخيرة الموجودة أمام المقبرة، نام على بطنه، وأخذ يراقب صفحة البحر بحذر.

تسمر في مكانه منبطحا على الصخرة المفلطحة لا يستطيع الحراك وقد داهمه شعور مرعب بأن هناك عدداً لا يحصى من العيون، التى تشبه في لونها عيون ماعز الجبل تراقب حتى حركات أطراف أصابعه من خلال المناظير المكبرة البالغة الحساسية والدقة!

كانت السماء تزداد زرقتها شيئا فشيئا، منذرة بشروق شمس يوم شديد الحرارة، وأثناء ذلك كان "كيوكيتشي" لا يزال منبطحا يلصق صدغه بصفحة البسطة الحجرية، بينما مد يده اليسرى يتفحص بها، ويتحسس الفراغات الموجودة بين الصخور الخضراء.

بعد فترة من الوقت، استشعر بأنامله ملمسا ناعما ما.

التقط بحذر شديد بأطراف أصابعه ذلك الجسم الناعم، واخذ يقربه أمام عينيه في بطء. أجل.. كان ذلك الجسم قلمَ حبرٍ يبدو عليه أنه غالي الثمن، كان "كيوكيتشي" منبطحا على بطنه يحاول كبح جماح صدره الذى صار يعلو ويهبط بشدة وسرعة من فرط الإثارة، بأن يضغط صدره بكف يده، وبيده الأخرى كان يتحسس ذلك القلم الحبر الذي اكتشف بغطائه خطأ رفيعا ما محفورا. وحينَ رفع القلم إلى أعلى كي يتفحص الغطاء تحت الضوء الخافت، لاحظ وجود ما يشبه الحروف مكتوبة عليه، لكنه لم يستطع قراءة تلك الحروف التي لم تكن واضحة.

خمن "كيوكيتشي" أن يكون اسم ذلك الشاب، وحين طرأ له ذلك الخاطر راودته رغبة جارفة مرة أخرى تدفعه للنظر إلى الجسد المسجى بجانبه.

وضع القلم الحبر في جيبه، ثم أراح رأسه في بطء فوق راحتي يديه.

كان يشعر لحظتها أن رصاصا سوف ينطلق بين لحظة وأخرى، من اتجاه البحر كي يخترق صدغه، فرفع نصف جسده العلوي شيئا فشيئا وهو يلتصق بالجدار الصخري، واختلس النظر إلى داخل الحفرة، وأنفه يحتك بالحجر الأخضر الموجود عند مدخل الحفرة.

في بداية الأمر، تشكك في قوة إبصاره.. فلم تكن جثه الشاب هناك في مكانها فوق الرمال، وبدلا منها كانت تبدو هناك كتلة كبيرة سوداء هلامية المعالم! أدرك بعد لحظات ان تلك الكتلة السوداء الرفيعة الطويلة المرتفعة عن الأرض، قد بدأت التحرك بخطوات قصيرة متتابعة، محدثة صوت احتكاك خشن بالأرض. ظل يحدق بكل تركيز في تلك الكتلة التي ألقت ظلا قائما خلال الفراغ الضيق المعتم للحفرة.

فوجئ "كيوكيتشي" في اللحظة التالية بمخالب قوية، مثل مخالب الطيور تقفش حنجرته قفشا، وحين فتح عينيه عن آخرهما، مذعوراً، وجد عددا لا يحصى من خيالات بعض الأحياء المجهولة الهوية، تقترب من وجهه مثل الفقاعات المتصاعدة. أجل.. كان ما ظهر أمام عينيه هو سرب من سرطانات البحر (الكابوريا)، غطت جثة الشاب الصغير. كانت أصداف ظهور سرطانات البحر المبتلة اللامعة وسيقانها الصلبة التي غطاها الشعر، وهي تحتك ببعضها تصدر صوتا أوحى لـ"كيوكيتشي" وكأن تلك الحيوانات تنهش جثة الشاب.

انقلب عدد من تلك السرطانات فوق الرمال، ثم عادت على أعقابها مسرعة باتجاه عمق الحفرة. في نفس الوقت ظهرت بدلا منها مجموعة أخرى من السرطانات لتنضم للسرب الرئيسي.

غطت سرطانات البحر الجثة تماما، بحيث لم تترك جزءا واحدا ظاهرا، تمتطي بعضها، بينما صارت تلوح في الهواء بأظافرها السميكة المتداخلة المتشابكة دون أن تتوقف للحظة واحدة.

من تحت ذلك العدد الكثيف من السـرطانات البحريـة، انـدفعت موجة أخرى تئن وتزوم، وتخرج رؤوسها وأظفارها من بين أجسـاد زميلاتها. وفي اللحظة التالية، تساقطت كومة السـرطانات البحريـة، وتناثرت على الجانبين ليبرز من تحتها رأس جثة الشاب الصغير.

كان الرأس متآكلاً، مسوداً، تكاد لا تبدو منه ملامـح الأنـف ولا العيون، وكانت منطقة الفم الفاغرة المفتوحة المظلمة تتحـرك وكأنهـا تهتف منادية شخصا ما، وبينما كان "كيوكيتشي" يجلس هنـاك علـى مقعدته فوق بسطة السلم الواسعة، سمع صوتا مبحوحا يفلت من حنجرة الشاب الصغير.

هنا راح "كيوكيتشي" يزحف على درجات السلم متجها نحو أسـفل الجرف، وعندما وصل إلى منطقة السفح أطلق لساقيه العنان، راكضـاً بكل قوته خلال الدرب بحذاء النهر، وهو يصرخ ملء حنجرته ناسـياً أمر الجنود الأمريكيين.

بعد فترة من الوقت توقف "كيوكيتشي" عن الركض، وهو يلـتقط أنفاسه، ثم التفت إلى الدرب الذي قطعه بحذاء النهـر، وبينمـا كـان يستشعر ملمس أصابع مبتلة تلتصق بظهره، خيل إليه أنه يرى نفسـه بنفسه من الخلف حين كان يركض منذ لحظات وهو يصـرخ بـأعلى صوته.

رفع "كيوكيتشي" عينيه إلى أعلـى، يـتفحص مطلـع الـدرجات الحجرية المؤدية إلى منتصف الجرف، فلمح على البعد فتحة المقبـرة المكشوفة في العراء وقد اختفى نصفها خلف الجذور النـافرة للشـجرة الضخمة التي فردت أغصانها المتشابكة، خيل لـ "كيوكيتشـي" وهـو

يحدق في الظلام، أن عيني تلك الكتلة غير الواضحة المعالم البيضاء المشوبة بالزرقة... تلك العينان الزائغتان المفتوحتان عن آخرهما تحدقان فيه خلال الظلام الدامس الذي يشبه شكل التابوت، وحين شخص ببصره أكثر كي يتحقق مما يراه، لمح جسما آخر شفافاً بعض الشيء يقبع جانب تلك الجمجمة الباكية.

كانت الريح التي هبت من ناحية البحر تزحف صاعدة ظهره المبتل بالعرق، ثم انزلقت فوق جانب رقبته، لتصطدم في النهاية بمجموعه من زهور "وجه الظهر"، التي يقف بجوارها لتهزها بشدة، تخشب جسد "كيوكيتشي"، وهو يقف متأهباً للمجهول! وبعد لحظات لم يعد يسمع للريح صوت.

في ذلك الوقت من السنة، لم تكن الريح تهب من ناحية البحر، إلا لماما، ولذلك فلم يكن يُسمع صوت الريح في الليل إلا نادراً، ولكن لم يكن بمستغرب أن يُسمع صوت الريح هذه الليلة بالذات.

في اللحظة التي شرع فيها "كيوكيتشي" بالتحرك ليأخذ موقفا مختلفا، يستطيع منه رؤية تلك الكتلة الغامضة الهلامية القابعة بجوار الجمجمة الباكية... أحس بوجود ظل شخص ما خلفه!

"من هناك"؟

صاح "كيوكيتشي" باتجاه ظل ذلك الشخص المجهول الذي يختبئ خلف دغل من الشجرات المتكاثفة بالقرب من الساحل. وهنا جاءه صوت رجل يقول:

" معذرة..لم أكن اقصد أن أختبئ هنا"

ثم ظهر صاحب الصوت تحت ضوء القمر، وهو يفتح طريقه بين الشجرات والأعشاب بعصا طويلة يمسكها بيـــده. أخـــذ "كيوكيتشـــي" يراقب الرجل في حذر وترقب.. لقد كان السيد "فوجي إي" الذي زاره وقت الظهر.

"ماذا تفعل هنا بحق السماء"؟

شعر "كيوكيتشي" بالحنق، وكذلك بالخزي حين أدرك أن "فـــوجي إي" كان يراقبه من خلف الشجيرات طوال الوقت، فـــأحس بالســـخونة تعتري أذنيه، حينما صاح معنفا "فوجي إي" بجملته السابقة.

" أبداً .. كنت فقط أقول لنفسي إن أضعف الإيمان أن أشاهد تلـــك الجمجمة الباكية ولو مرةٍ واحدة ".

كان "فوجي إي" يحافظ على رسم ابتسامته الناعمة الودود، وهـــو يعبث بعصاه، تلك التي أمسك بها لحماية نفسه من ثعـــابين "الحـــنش" المنتشرة بالجزيرة. لكن تلك الابتسامة أثارت حفيظة "كيوكيتشي" الذي بادره صائحا:

" هل تقوم بالتفتيش عليّ"؟

"أبدا، أبدا.. ليس الأمر كذلك".

وهنا ألقى "فوجي إي" بعصاه إلى الأرض، وشرع في الاقتراب.

"لا تقترب منى"!

توقف "فوجي إي" تلقائيا على إثر تحذير "كيوكيتشي" شديد اللهجة.

"هناك أمر ما أريد أن أستوضحه منك.. أمر ملـــح تمامـــا، إنـــه بخصوص ما إذا كانت تلك الجمجمة لمقاتل من أفراد الفرق الانتحارية أم لا؟"

"ماذا؟ أنا لا أريد الحديث معك، فأنتم يا أهل الجزيرة الكبيـــرة لا يحق لكم أن تطئوا هذا المكان.. وعليك أن تغرب عن وجهي قبـــل أن تلقى حتفك"

كان الاثنان يقفان في مواجهة بعضيهما، تفصلهما بضعة أمتار في الوقت الذي كانا يتبادلان فيه نظرات التحفـــز. وبعـــد لحظـــات أخـــذ "كيوكيتشي" يمسح العرق عن رقبته بكـــف يـــده مســـتغلاً، اللحظـــات القصيرة التي أشاح فيها "فوجي إي" بناظريه، وأخذ ينظر ناحية النهـــر بوجه اعترته علامات الحيرة والاضطراب. وفي هـــذا الوقـــت كـــان "كيوكيتشي" يعقد العزم في سريرته على استخدام منجله كوسيلة للتهديد إذا استمر "فوجي إي" في جمع مادته الصحفية متجاهلا إياه.

كان بخار الماء يواصل الصعود من داخل الجبل والغابات رغـــم حلول الليل، وهو ذلك الجبل وتلك الغابات التي أشعلتها أشـــعة شـــمس النهار، وكان مجرد الوقوف وسط تلك الرطوبة الساخنة، يجعل المـــرء يتصبب عرقاً. فيما تغطي الغيوم الكثيفة المتصاعدة مـــن خـــط أفـــق البحر، السماء. ومع هبوب الريح التي دفعت أمامها تلك الغيوم اختفـــى ضوء القمر.

على حين فجأة، سُمع ذلك الصوت الشجن الحزين، وســـط ذلـــك الظلام الدامس المفاجئ يسري خلال الأثير مثل ريح تعبر قادمةً مـــن عالم بعيد، وكان ذلك الصوت الشجن يهبط الجرف في هدوء، ليمســـح صفحة النهر، ويمضى بعيدا مع مجراه.

في هذه اللحظة اتجهت أنظار الرجلين بشكل تلقائي نحـــو أعلـــى الجرف. وفي اللحظة التالية ظهرت حشـــرة مـــن حشـــرات اليـــراع المضيئة الفسفورية خرجت طائرة من تجويف عين الجمجمة، واقتربت

من الاثنين وكأنها تسلك نفس مسار الصوت الغامض، ثم مرقت من بينهما، لتسقط في النهاية، وتختفي في تيار النهر!

هنا خبط "كيوكيتشي" كتف "فوجي إي" بعنف فترنح وكاد يهوي إلى الأرض، في نفس اللحظة التي صاح فيها "كيوكيتشي":

"اهرب بسرعة"!

ولما لم يتحرك "فوجي إي" من مكانه، وظل واقفا مشدوها صار "كيوكيتشي" يزجره بشدة:

"ماذا تفعل بحق السماء– هيا أسرع بالهرب"!

في اللحظة التالية أطلق الرجلان سيقانهما للريح، وظل "فوجى إى" يتبع أثر "كيوكيتشي" بعد أن أفزعه صوت "كيوكيتشي" الخائف وعلامات وجهه المذعورة.

على قارعة الدرب، كان هناك عدد من الكتل الحجرية المتناثرة هنا وهناك، والتي كانت من خامة الحجر الجيرى الأبيض، الذي يشبه عظام جثث بقيت على حالتها جيدة دون أن تؤثر فيها عوامل التعرية.

بعد لحظات من بدء الركض المذعور كان "كيوكيتشي" قد فقد نعليه المصنوعين من المطاط، فتشقق باطن قدميه، وصارت ذرات وشظايا الحجر الجيرى التي نفذت خلال فتحات الجروح تختلط بالدماء وتتكلس محدثة آلاما مبرحة، ومع ذلك فلم يستطع التوقف عن الركض، أما "فوجي إي" الذي كان يحرص على ألا يفقد أثر "كيوكيتشي" وهو يعدو خلفه، فقد لاحظ "كيوكيتشي" عن بعد، وهو يكاد يتعثر وينكفئ على وجهه من فرط السرعة والذعر فوق الجسر

المعلق، فصاح محذراً:

"احترس"!

قفز "فوجي إي" قفزة واسعة إلى الأمام، حيث استطاع أن يقبض بقبضته تلابيب زى العمال الذي يرتديه "كيوكيتشي" من الخلف، وجذبه من فوق سور الجسر حيث كان نصف جسمه العلوي قد برز للخارج، وحين التفت "كيوكيتشي" في هذه اللحظة، حيث انعكس في عينيه وجه "فوجي اي" شبيهاً تماما بوجه الجندي الشاب الصريع.. شاحبا غير واضح المعالم!

في هذه اللحظة، اعترى أيضا جسد "كيوكيتشي" شعور عارم متداخل بين خشية أن يقدم على دفع "فوجي اي" بيده كي يسقطه من فوق الجسر ويقتله، وبين أن يضمه بكل قوة بشعور نابع من أعماق الأحشاء حتى أطراف أصابعه.. ذلك بينما كان يلهث بشدة، في اللحظة التالية قبض بشدة على أصابع يد "فوجي أي" الممسكة بكتفه، وقربها من صدره، لكنه عاد على الفور بعد ذلك ليدفع جسده النحيل بعيدا بكلتا يديه، ليواصل الركض باتجاه منازل القرية التي لاحت عن بعد.

وصل "كيوكيتشي" إلى الطريق الإسفلتي الرئيسي الذي يحده من الجانبين سور حديدي مفرغ، وحين أشرف على القرية كانت قد لاحت منها بوضوح أضواء المنازل، فتوقف عن الركض، ثم جلس القرفصاء على قارعة الطريق.

ظل "كيوكيتشي" على حاله هذا يلتقط أنفاسه لمدة خمس دقائق تقريبا، لكن لم يكن يبدو أى أثر لـ "فوجي إي" حتى هذه اللحظة.

نهض "كيوكتشي" واقفاً على قدميه، وبعد أن قطع الطريق سـيراً على مهل لبضع دقائق، شعر بأشجار الدغل علـى جانـب الطريـق تتحرك وتميل، وبعدها أحس بريح دافئة تحمل رائحة يود البحر، وهي تتخلل الدغل ثم تلامس قفاه من الخلف. بعـدها مـرت حشـرة مـن حشرات اليراع فوق رأسه ثم اختفت على البعد مـع صـوت الـريح الضعيف.

"إنها تبدو حقا كما لو كانت تبكي"!

حينما ألقى "طوكوإيتشي" بهذه الكلمات على "فـوجي إي"، أومـأ الأخير برأسه مصدقاً على كلامه، ثم نظر إلى ساعة يده.

كانت سماء الشرق التي بدأ يشوبها ضياء خافت تـنعكس علـى زجاج لوحة الساعة التي أمالها "فوجي إي" ليميز العَقارب والأرقام.

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف بقليـل. فـي الليلـة الماضية وبعد أن انفصل "فوجى إى" عن "كيوكيتشي" وتركه وحده عاد إلى الفندق الشعبي الصغير الذي يبيت به، دون أن تراوده الرغبة فـي الذهاب إلى الجرف مرة أخرى.

كان "إيزومي" جالساً هناك وحده يحتسي البيـرة أمـام المروحـة الكهربية في تلك الغرفة التي تشبه كشك مواقع البناء، والتـي كانـت حارة رطبةً مكتومة الهواء.

حين لمح "فوجي إي" يدخل من الباب عاجله:

"أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة"

"كان الحر لا يحتمل.. فقمت بالتنزه في المنطقة القريبة"

"آه إنه مكان بائس لا يطاق.. ليس هناك مكان يتسلى بـه المـرء سوى ذلك البار المتواضع التعس. من السذاجة المطلقة أن تفكر بجذب السياح إلى هنا".

"ليس لك أن تقول هذا"

هكذا وبخه "فوجي إي" بنبرة هادئة، ثم خلـع سـترته وتنـاول منشفته، ثم قال:

"عساك ستأخذ دشاً"

"أجل"

"ما بال صاحب هذا الفندق التعس لا يكلف نفسه بتركيـب جهـاز تكييف صغير. إن العرق يتصبب مني بمجـرد الجلـوس. آه... لقـد تذكرت شيئا، لقد جاءت في الليل فتاة، قالت إنها مـن طـرف السـيد "إيشيكاوا"، وطلبت منا أن نخرج في الصباح، في وقـت مبكـر عـن موعدنا المحدد لنأخذ بعض اللقطات. أبلغتني أن العمـدة اسـتطاع أن يقنع عجائز القرية، وأخبرتني أنه سيحضر إلينا هنا في الخامسة فجراً"

رد "فوجي إي" رداً قصيراً على "إيزومي"، ثم توجه نحو غرفـة الدُش.

كان الإرهاق قد تملك من جسده كله، وبالرغم من أنـه اغتسـل بالماء الساخن إلا أن الإرهاق قد تملك منه ولم يغادره. وبعد أن لـبس روب الحمام، فرد المنشفة الكبيرة فوق "إيزومي" الذي بدأ ينعس وهـو يمسك بمجلة من مجلات الكاريكاتير، ثم أطفأ الأنوار.

كان يشعر بألم في صدره من أثر دفعة "كيوكيتشي". لم يمر وقت طويل حتى أقنع نفسه بعدم التفكير في هذا الأمر، وحـاول جاهـداً أن

يغرق في النوم.. غير أنه لم ينجح، وظل هكـذا حتـى أتـاه صـوت "طوكوإيتشي" مناديا عليهما، وهنا شعر أن التعب والإرهـاق قـد زادا عن ذي قبل.
"هيا استيقظا.. لقد حان الوقت للخروج"؟

كان "فوجي إي" يطالع الجرف بعينين زائغتين في الوقـت الـذي أخذ فيه "طوكوإيتشي" يهمس في أذنيه منفرج الأسارير. كـان"فـوجي إي" خلال تلك اللحظات قد اعتراه شعور بالإحباط.

كان "فوجي إي" قد توظف بشركة للبث الإذاعـي بعـد انتهـاء الحرب بسنوات ثلاث، وبعدها انتقل للعمل بمحطة تليفزيونية أنشـئت حديثاً، ومنذ أن صار يتولى إعداد بعض البرامج، كرس نفسه في سبيل جمع مواد مرئية وثائقية تناولت معالجة الجراح التي خلفتها الحـرب، من خلال مروره باليابان طولاً وعرضاً، دون ترك مكان مـا بقـدر المستطاع.

على إثر ذلك نال استحسان رؤسائه وتقديرهم، واستطاع الحصول على جوائز عن بعض برامجه التي أعدها وأخرجها. لكنه في السنوات العشر الأخيرة داهمه شعور بالإحباط والملل، يزداد مع الأيـام حتـى خروجه لجمع الخطة لمجرد طرحه اقتراح منطقة جزيـرة "أوكينـاوا" لتكون مشروع برنامجه الجديد. كان يتوقع من زملائه رأيا مفاده:

" قطعنا شوطا طويلا في عرض كل ما يخص معركة "أوكيناوا".. بحيث صار الموضوع مكررا مملاً، ألا ترى أن "هيروشـيما" أفضـل من حيث أنها لا تزال مادة خصبة. سمعنا أن حركة السلام ومعارضة انتشار السلاح النووي سوف تنشط خلال شهر أغسطس (آب) القـادم مع الاحتفال بذكرى إلقاء القنبلة الذرية"!

كانت البرامج الوثائقية، التي تناولت بوجه خاص قضايا اجتماعية مختلفة، لاقت شعبية كبيرة لفترة ما، لكنها صارت في أزمة شديدة من انخفاض شعبيتها بحيث صارت، تبحث جاهدة عنْ ممولين لها، بعد أن انخفضت ميزانيتها، وأُبعدت لتذاع في إطار برامج منتصف الليل، ذات نسب المشاهدة المنخفضة.

استطاع "فوجي إي" بعد جهود مضنية أن يحصل على موافقة المسئولين عن المحطة التليفزيونية بعد إلحاح مستمر، وبعد أن أقنعهم إن معركة "أوكيناوا" لا يمكن اسقاطها من البرامج الخاصة بمناسبة ذكرى انتهاء الحرب، لكنه بمجرد الانتهاء من الحصول على تلك الموافقة شعر، وكأنه انتهى لتوه من جمع مادة معقدة، استغرقت وقتا طويلا فأصيب بالتعب والإرهاق.

كان "فوجى إى" يتوقع أن يكون هذا آخر عمل له في حياته العملية. أجل.. هكذا كان يتمتم في سريرته.

كان "فوجي إي" يقنع نفسه بأن شعوره بقيمة الحياة، يكمن في شعوره بالرضاء عما يقوم به، حتى لو استغرق منه ذلك وقتا طويلا، وحتى لو لم يكن ذلك مرتبطا بترقيته في الشركة، لكنه بمرور الزمن ودون أن يشعر اكتشف أنه أقرب إلى بلوغ سن المعاش.

"السيد رئيس الحي.. هل اشتركت بالفعل في معركة "أوكيناوا"؟

طرح "إيزومي" هذا السؤال على "طوكوإيتشي" بصوت خال من الحماس، ويوحي بأنه يطرحه كنوع من الواجب أو قتل الملل.. ذلك بينما كان يغالب الرغبة الملحة في التثاؤب! وهنا بدأ "طوكواتشي" الحديث متفاخراً كعادته.

وقال: "ألا يغريك منظري هذا.. لقد كنت واحداً من القوات الانتحارية الإمبراطورية"!.

"كان عمري لا يتعدى الخمسة عشر عاما. كنت أختبئ داخل إحدى المغارات الصخرية في جبل بحذاء الساحل، وأنا ألف حول خصري حزاما ناسفا، وكنت متحفزا للاصطدام بأى دبابة تهاجم المكان، لكن دبابة واحدة لم تقترب من موقعي"!

ثم استرسل:

"لو حدث وجاءت واحدة من الدبابات لقفزت إليها دون تردد... أجل هكذا كنت سأركض، مخفضاً رأسى لأقفز تحت جنزير الدبابة، لأن جنزير الدبابة لو أصابه العطب تعجز الدبابة عن الحركة. إنها حركة من حركات الفصائل الفدائية البرية"

" حقاً؟ يا له من شيء رائع، إننى أعتقد أن كل أبناء " أوكيناوا " قد مروا بمثل تلك التجربة "

"أجل أجل.. أستطيع أن اكتب كتاباً كاملاً من خلال الحكايات التي أعرفها أنا بمفردي"

"حقاً ؟ أخبرني بمثال ما"

وهنا شرع "إيزومي" في إخراج مفكرته الخاصة من جيبه.

"هل أعددت جهاز تسجيلك"؟

كان " إيزومي" يجتهد في كبح جماح استيائه، لكن مشاعره تلك صارت واضحة في عيون "طوكوإيتشي" الذي أحس أن فرصته في الدعاية لنفسه قد ضاعت، فصار ينظر شذراً نحو "فوجي إي"، خاصة بعد أن أعاد "إيزومي" مفكرته إلى مكانها في جيبه!

وفجأة حول "طوكوإيتشي" مسار الحديث:

"بالمناسبة.. إن صاحب تلك الجمجمة الباكية كان أصلاً من الفرق الانتحارية"!

كان "طوكوإيتشي" يثرثر هنا وهناك أمام كل من يقابله بتلك الحكاية، ولما لم يكن هناك من يعيره اهتماما، أخذ يتجول هنا وهناك دون هدف محدد حتى التقى بـ"فوجي إي" حين اختلس "طوكوإيتشي" نظره إلى الاجهزة التى يحملها "إيزومي" معه فبدأ الحديث مبتسما بصوت خفيض.

كان "فوجي إي" قد علم مسبقاً- بعد البحث والاستقصاء- أن العظام الموجودة بالمقبرة المكشوفة للعراء لمقاتل من الفرق الانتحارية، وكان هذا هو السبب الذي دفعه لاختيار هذه القرية لجمع مادة البرنامج. تذكر"فوجي إي" رفاقه حين كانوا يطيرون تباعاً نحو"أوكيناوا" في شهر مايو (آيار).

"ألا تخرج لدقيقة هنا"!

جاءه ذلك الصوت المبحوح هامساً.

بعد أن غادر "فوجي إي" فراشه بقليل، كان قد خرج من الثكنة العسكرية على أثر دعوة "كانوو" له. أغلب الظن أن معظم الرفاق بالثكنة لم يستطيعوا أن يتذوقوا طعم النوم، لأنهم كانوا يفكرون بأمر مهمة الهجوم القتالية المقرر القيام بها صباح اليوم التالي، وربما لهذا السبب لم يؤنبه أحد على خروجه من أسوار الثكنة.

كانت تلف المكان ريح حارة رطبة، والمشهد العام يوحي بوشوك هطول المطر، حيث تغطي الغيوم الكثيفة المنخفضة السماء، والثكنة العسكرية التي أقفلت يخيم على نوافذها السكون.

داخل تلك الثكنة، يقف الجميع في قلق آخر ليلة، ومع تلك الحرارة المصحوبة بالرطوبة في هذا الليل الطويل. كانت أجسادهم تفوح منهـا رائحة العرق العطن، وكان الجميع يعلمون أن احتمالهم لتلك الرائحـة الكريهة النفاذة أمر لن يطول مع حلول الفجر.

تسلل الإثنان من بين مباني الثكنة العسكرية، وسارا علـى مهـل وفي حذر يقطعان الحديقة الخلفية. يسير "كانوو" متأخرا عـن "فـوجي اي" بخطوتين أو ثلاث، وكان "فوجي إي" يسـتمتع بالإصـغاء إلـى صوت حذائه وحذاء رفيقه الذي كان يتردد صداه في أرجاء المكان مع الارتطام والاحتكاك بالزلط الذي يفترش الأرض، بينما يتأمـل قدميـه وهو يسير في خطوات منتظمة.

كان يشعر في نفس الوقت أن ذلك الصوت الذي لا يعنـى شـيئاً، يعطيه إحساساً بالأمان والطمأنينة بعض الشيء وسط يـوم مشـحون بالتوتر والقلق. لم يكن قد مر شهران منذ أن تعرف برفيقـه "كـانوو"، ولكنه منذ أن وقعت عيناه على وجهه لأول مره شده الاهتمام بوجـود إحساس غامض ما يعكس البرود والهدوء اللذين لا يليقان بذلك الوجـه البريء الأبيض، الذي لم تزل تشوبه علامات الطفولة البريئة.

كان يبدو أن "كانوو" ليس لديه أى اهتمام بما يجرى داخل الكتيبـة ولا بأفرادها، ولا بالتدريب الذي يقومون به، ولا حتى بـاليوم الـذي تحدد للقيام بالهجوم الانتحاري.

كان هؤلاء الأفراد الذين تم نقلهم من كتائبهم ليدخلوا هذه الكتيبـة الخاصة الانتحارية، يتم الاعتناء بهم، وبمطـالبهم مقارنـةً بـالأفرع الأخرى من الجيش، ومع ذلك كان الأمر مختلفا مع "كـانوو". اجـل..

كان يتم ضربه والتنكيل به بصفة شبه يومية من الضباط وضباط الصف الأكبر منه رتبة، إلا أن "كانوو" لم يكن يظهر على الإطلاق أي علامة أو تعبير على وجهه يعكس شعوراً بالألم!

بل إنه على العكس دائما، يلوى شفتيه الدقيقتين وكأنه يبتسم ابتسامةً ساخرة تستخف بمن هم حوله.

كان "فوجي إي" يهتم بسماع ما يقال من الرفاق الآخرين عن "كانوو" داخل المعسكر، لكنه لم يعرف الكثير عنه سوى أنه دخل معه الجيش ضمن دفعة المجندين إجبارياً في نفس الفترة تقريباً، بعد أن كان طالباً بجامعة "كيووطو".

المرة الأولى التي تبادل فيها حديثاً معه بعد أسبوعين، حين كان يقف بالمرحاض للتبول قبل الذهاب للنوم، فوجئ بشخص ما يضايقه من الخلف، وحين حاول جاهداً دفع تلك اليد التي تدفعه من الخلف، فإذا بجسم بارد ما ينحشر داخل فمه. كان موسى للحلاقة!

بلع "فوجي إي" ريقه من الرعب والصدمة، وتوقف تماما عن الحركة، ثم أتاه صوت من الخلف يتوعده:

"لا تنظر إليّ مرةً أخرى بهذا الشكل"!

كان ذلك الصوت صوت "كانوو"، وبعد أن ترك ذلك الشخص ذراعه من الخلف وصار حراً طليقاً، التفت "فوجي إي" إلى الخلف يتفحص المكان حوله في الظلام، ولكن "كانوو" كان قد اختفى عن الأنظار.

بعد ذلك، كلما كان "فوجي إي" يصادف "كانوو" في طريقه يشيح بوجهه بعيداً، ويحرص على ألا ينظر إليه على الإطلاق.

لكن بعد مرور عدة أيام، حينما كان يسير "فـوجي إي" مطـرق الرأس داخل المعسكر، استوقفه صوت ما يناديه باسمه، وكان صاحب ذلك الصوت هو "كانوو" نفسه!

ودون أن يستوعب "فوجي إي" ما يحدث، نظر إلى وجه "كانوو".

"إنه أمر الهجوم"!

نطق "كانوو" بتلك الجملة القصيرة، وهو يضحك ملء شدقيه بوجه برئ تماماً أدهش "فوجي إي". ومن فرط دهشته ظل متسمراً في مكانه عدة دقائق دون أن يتحرك.

حينما أفاق من المفاجأة حاول أن يناديه ليستوقفه، لكن الأخير كان قد أعطاه ظهره، وبدأ يسير مبتعداً عنه موحياً إليه بامتناعه عن الرغبة في الحديث إليه.

بعد ذلك بثلاثة أيام، علم "فـوجي إي" بصـدور الأوامـر إلـى مجموعته بالانطلاق بالطائرات نحو "أوكيناوا" في عملية هجومية.

كان ذلك اليوم هو السابع عشر من مايو (آيار) عام 1945.

شغل "فوجي إي" ومعظم رفاقه الأيام القليلـة المتبقيـة بترتيـب متعلقاتهم، وكتابة رسائلهم الأخيرة. لكن "كانوو" كان الوحيد الذي لـم يقم بذلك، فكان يقوم بقراءة بعض الكتب أو بـالتنزه داخـل طرقـات المعسكر.

حاول "فوجي إي" أكثر من مرة أن ينادي عليه، ليتحـدث معـه، لكنه كان دائما في اللحظة الأخيرة يقلع عن ذلك، حين تلتقـي عينـاه بعينيه!

بعد مرور يومين آخرين.. وحيث كان صباح اليوم التـالي هـو موعد وجود "كانوو" بين الحاضرين.. تصنع الذهاب لقضـاء حاجتـه بالمراحيض، وخرج من الحلقة التي صـنعها رفاقـه بينمـا صـاروا ينشدون الأناشيد الحماسية الجماعية.

أجل.. كان "فوجي أي" يريد محادثه "كانوو" قبـل الخـروج فـي المهمة الأخيرة. ومع ذلك فلم يكن يرتب في ذهنه حوارا معيناً. فقط.. حين أدرك "فوجي إي" أنه مع حلول ساعة الصفر في الصباح البـاكر، لن يعود أي منهم مرة أخرى إلى هنا، ولن يصير لـه وجـود بهـذه الدنيا.. أحس بأنه لن يستطيع احتمال إنهاء عمره دون تبـادل كلمـات ذات ثقل ومعنى مع أي شخص. كان يعلم تماما أنه لـو تحـدث إلـى "كانوو"، فإن الأخير سيتجاهله ولن يرد عليه.

عاد "فوجي إي" إلى فراشه بالثكنة، وكتـب بعـض الخطابـات واليوميات، وحين جاءه أحد الرفاق يدعوه للانضمام إلى مجلس الخمر الأخير، اعتذر له لشعوره بالغثيان، وأنه سيخلد إلى النوم، وظل هنـاك بانتظار ظهور "كانوو"، ولكن الرفاق صاروا يعودون تباعاً إلى عنبـر النوم وهم سكارى، وينشدون الأناشيد العسـكرية الحماسـية، وظـل "فوجي إي" هناك داخل فراشه يغالب النعاس في تلـك الليلـة الحـارة الرطبة الصعبة الاحتمال، لكن "كانوو" لم يظهر أبدا، وفي نهاية الأمـر غرق "فوجي إي" في النوم، بينما كان يعاني من شعور قاتل بالوحشة.

مع انتصاف الليل، كان الصوت الذي أيقظه هامساً هـو "كـانوو" والذي صار يهز جسده بشدة لإيقاظه.

فجأة، تناثرت أمام عينيهما من الأرض ذرات حمراء من النـــار. كان "كانوو" قد داس بقدميه عقب سيجارة لا تزال مشتعلة، وكأنه فقـأ حشرة صغيرة، لكنه لم يتوقف، واستمر في سيره، وهو يقول:

"لا تلق بالاً"!

في هذه اللحظة كان "كانوو" يضحك ساخراً من "فوجي إي" الـذي انحنى ليلتقط عقب السيجارة المشـتعل. بعـد أن أطفـأ "فـوجي إي" السيجارة دفسها في جيبه دون أن ينطق بكلمة واحدة.

حين وصل الاثنان في النهاية إلى أسفل جرف عالٍ يقـع خلـف المعسكر، وقف الاثنان كتفاً بكتف وهما يطالعان أعلى الجرف. كانـت أفرع أشجار الصنوبر الباسقة وسط الجرف يصدر عنها صوت حفيف مع هبوب بعض الريح.

وفجأة همس "كانوو ":

"هل تتسلق معي هذا الجرف"

نظر "فوجى أى" بتمعن إلى وجه زميله من الجانب متحيراً.. لكنه لم يستطع أن يميز تعبيرات وجهه جيداً، إلا أنه اسـتطاع أن يستشـف إحساسا ما بالقلق والتوتر لم يكن يعهده مع ذلك الشاب الذي كان دائـم التهكم والاستخفاف بكل شيء.

"ألا تخاف"؟

قال "فوجي إي" هذه الكلمة وهو يشعر بالخوف والرعب مـن أن يخطئ جنود الحراسة الفهم فيظنون أنهما يحاولان الفرار. وكأنما لـم يسمع "كانوو" تلك الكلمة التى نطق بها "فوجي أي"، فقد سـار بخطـى ثابتة متوجها نحو الجرف، وبدأ يمسك بالأشجار والأفرع البارزة مـن الحائط الصخري للجرف، وشرع بالتسلق، ثم بدأ يصعد متسلقاً بسرعة ومهارة شديدتين.

وهنا هتف به "فوجي إي":

"إذا اكتشفك الحراس فلن تمر الامور بسلام"

التفت إليه "كانوو" وهو يواصل التسلق بوجه هادئ بارد تماماً وقال له:

"بماذا تهذي الآن ؟ لم يعد ما تقوله يفيد بشيء يا رجل"

صمت "فوجي إي" تماما بعد أن فاجأته كلمات "كانوو". كانت تلك الكلمات قد اخترقت صدره بعمق.

انفجرت من أعماق ذلك الصدر شحنه رهيبة من الغضب والحنق كان يكتمها منذ فترة طويلة، ولم يشعر بنفسه في اللحظة التالية إلا وهو يبدأ في تسلق ذلك الجرف الشاهق الفجائي الوعر، بينما كان يتمتم في سريرته بكلمات لا يعرف لها معنى.

أخذت الريح التى زحفت مع التواءات شجيرات الدغل وكأنها ثعابين تتلوّى.. أخذت تعلق بجسد "فوجي إي" الذي تصبب عرقاً. وأثناء صعوده وتسلقه ذلك الجرف القائم الخطر كان يزيح بذراعه عن طريقه تلك الأعشاب البرية الطويلة المدببة الأطرف الباسقة في اتجاه السماء، وبين وقت وآخر، وعلى الضوء المبهر الذي كان يسببه لمعان البرق.. يرى الغيوم التي تكسو السماء فوقه واضحة جلية. وكانت تبدو تلك الأعشاب في عينيه وكأنها مخلوق ينمو بسرعة شديدة على غذاء يمتصه بشراهة من بخار الماء الذي يتصاعد من جثث الجنود الذين يموتون يوميا بأعداد كبيرة!

في تلك اللحظة خيل لـ "فوجي إي" أن إحساساً ما يداهمه بأن جسده قد تحول إلى خلايا وذرات دقيقة متناثرة تنتشر في أرجاء

المكان، فصار يحاول جاهدا كبح شعور قوي بالرعب والقلق، أجتاح جسده كله.

تذكر في اللحظة التالية كلمة "الروح الطافية" التي استخدمها في الرسالة التي كتبها ووجهها إلى أستاذه بالجامعة، بحيث أن تلك الكلمة كانت تلح على ذهنه ولا تفارقه أبدا، وهو يواصل التسلق. وحين نظر إلى جانبه رأى "كانوو" وهو يحاول جاهدا رفع نصف جسمه الأعلى في منطقة بالغة الوعورة، فمد ذراعه، وأسنده بعضده كي يساعده على الصعود، وحين نظر إلى أسفل الجرف في تلك اللحظة شاهد البحر المتسع تحت قدميه، وكذلك المنظر البانورامى لمنازل المدينة البعيدة.

كانت تلك المدينة التى اطفئت أضواؤها، تظهر في عينيه كما لو كانت تذكره بمنظر مد البحر الذي يعج بعدد لا يحصى من الحيوانات البحرية التي غطست بأجسادها داخله.

في اللحظة التالية، أخذ يتخيل وجهي أبيه وأمه. كان يتخيلهما يختبئان الآن في حفرة طينيه مثل زوج من سرطانات البحر، بينما لا يفعلان شيئاً سوى التنفس في وهن، وقد تملك منهما الرعب.

أخرجه صوت "كانوو" القوى المفاجئ من شروده:

"ألا تشعر بالملل"؟

كان "كانوو" قد التوى بجسده لينظر إلى "فوجي اي"، بينما كان يجلس على مقعدته على حافة صخرية بالجرف.

لم يستطع "فوجي إي" أن يرد بكلمة واحدة على " كانوو"، واكتفى بأن يردد في سريرته نفس الجملة التى سمعها الآن.

أجل... كان هذا السؤال بالنسبة له مخيفا ومرعباً عن غيره من الأسئلة.

جاهد "فوجي إي" خلال الأسبوع الأخير أن يبحث عن كل المعاني الممكنة لموته الوشيك، وأخيرا لم تكن الحصيلة تتعدى هذا الخواء. أدرك أن جميع من حوله من الرفاق يخشون أن يواجهوا أنفسهم بحقيقة هذا الخواء واللا معنى، وأنهم كانوا يتحايلون على أنفسهم، ويغالطون شعورهم بكتابة الرسائل والخواطر الأخيرة.

أجل.. فكم من مرة كبح "فوجي إي" فيها نفسه من الانزلاق وراء رغبة ملحة متأججة داخل صدره، لكي يقطع حنجرة كل هؤلاء الذين يتشدقون بجملة: "من أجل الإمبراطور المفدى".

كان يعتري صدره شعور متزايد بالحنق والكراهية لا يستطيع أن يجد له متنفسا كي يفجره فيه. شعور ينهش صدره وأحشاءه نهشا، ثم عاد "فوجي إي" ليسخر من "كانوو" داخل نفسه، فصار يقول في سريرته:

"هل هذا كل ما عندك؟ ألا تشعر بالملل!"

أدرك أن "كانوو" يتخايل بكونه متمرداً وساخراً من كل شيء، لكنه في الحقيقة لا يزيد عن كونه أحد الخائفين الملتاعين المذعورين!، أجل.. لقد شعر"فوجي اي" للمرة الأولى بضآلة "كانوو" أمام عينيه، وأنه أضعف كثيرا منه هو نفسه، وشعر بالشفقة على نفسه لأنه ظل يتصور "كانوو" بطلاً حتى لحظات عمره الأخيرة.

عاد "كانوو" ليصيح به:

"هل أجد معك عود ثقاب"؟

دس " فوجى اى" يده في جيوبه باحثاً عن ثقاب، وعنـــدما عثــر أخيراً على علبه ثقاب وأخرج منها عودا وأشعله.. انطفأت شعلته على الفور مع هبوب الريح. اقترب "كانوو" بوجهه منه وهو يضع ســيجارة بين شفتيه. وعلى بصيص ضوء شعلة الثقاب الثانى بدا وجه "كـــانوو" طفولياً مبالغا في براءته. وهنا شعر "فوجي اي" بشعور مباغت بـــالألم والتأثر، فأشاح بعينيه بعيداً. شعر بأنفاس "كانوو" الساخنة تلهــب أذنـــه في نفس اللحظة التي همس فيها "كانوو" بشيء ما فرد عليه "فوجي إي" منزعجاً:

"ماذا... ماذا قلت"؟

في اللحظة التي التفت فيها نحو وجه "كانوو" لامس شفتيه شـــيئ طري!

في نفس هذه اللحظة التي راوده فيها هذا الشعور، فوجئ "فـــوجي إي" بيدين تمسكان بياقته بشدة، وفي اللحظة التالية وجد نفســـه يطيـــر بعيداً في الهواء.

أحس بصوت دوي شديد صادر عن تحطم جزء من جسده، أدرك أن جسده ارتطم بشدة بجذع شجرة من أشجار الصنوبر الباســقة فـــي منتصف الجرف.. تلك الشجرة التي تمايلت واهتزت بعنف مـــن شـــدة الارتطام.

كانت رائحة عصارة الشجرة النفاذة قد دغدغت خياشيمه، فوجـــد نفسه، كرد فعل تلقائي، يتشبث بأحد أفرع تلك الشجرة، لكن الفرع مـــا لبث أن انكسر، فوجد نفسه يسقط في بحر من الظلام الدامس العميق.

حين استرد "فوجي إي" وعيه لم يكن هناك أي أثر لـــــ"كـــانوو"، كذلك لم يجد أحداً بجانبه للاطمئنان عليه.

هكذا نطق الطبيب العسكرى بكلمات تشوبها السخرية. ثم استطرد الطبيب:

"كنت محظوظا حين استقر جسدك فوق فرع من أفرع شجرة الصنوبر، وإلا لكنت الآن في عداد الأموات"!

مرت عدة أسابيع، قضاها "فوجي اي" بين الغيبوبة والإفاقة يعي جيداً ما يدور حوله.

كان يرقد في فراشه، بأوامر بالراحة التامة بعد أن أصيب بكسور مختلفة في ذراعيه وساقيه، بالإضافة إلى الآلام الشديدة بفقرات ظهره. وعلم من جنود الشرطة العسكرية الذين جاءوا لاستجوابه، أن زميله "كانوو" كان تحت التحقيق حول سبب سقوطه في حادث.

لم ينكر "فوجي أي" ولم يقر بشيىء.. فقد ظل محتفظا بصمته.

كان واضحاً أنه متهم بتعمد القفز من فوق الجرف لكي يتهرب من أوامر الهجوم الانتحاري، ولذلك كان يدرك تماما إنه لن يستطيع الإفلات من تقديمه إلى محكمة عسكرية بعد سلسلة من التحقيقات الصارمة فور تماثله للشفاء، لكن هذا الأمر لم يكن يشغله أو يقلقه.

كان يقضي معظم اليوم في الاستغراق في النوم، ولم يظهر الامتعاض أو التأفف على وجهه أبدا، رغم معاملة الضابط الطبيب الخشنة والرعناء كلما جاء للكشف عليه، فكان يكتفي بالتحديق في سقف الغرفة المتسخ الكئيب.

مع حلول منتصف شهر يوليو (تموز) كان "فوجي إي" قد انتقل إلى إحدى مستشفيات المدينة.

يوم انتقاله إلى ذلك المستشفى كانت آخر جملة رشقها بـه ذلـك الطبيب الضابط هي:

"قد تعيش بقية عمرك بشلل نصفي"!

كانت نظرات الطبيب الباردة التي تتفحصه في تلك اللحظات، تكاد تنطق بالرغبة في ان يحل به ذلك الأمر.

بعد مرور ثلاثة أشهر غادر "فوجي إيِ" المستشفى، واستقبله والده في بيته، لكنه ظل ثلاث سنوات كاملة راقداً في فراشه، معزولاً عـن العالم القابع خارج غرفته، لا ينتابه أي رد فعل تجاه ما يحدث هناك.

في يوم من أيام شهر مايو (آيار) خرج "فـوجي إي" لأول مـرة من البيت يجوب شوارع المدينة بحثا عن عمل يرتزق منه. كـان أول عمل يلتحق به هو حمل الأمتعة، لكنه أصيب بانتكاسة أخـرى بسـبب ذلك العمل الشاق، فلم يستمر بالعمل أكثر من ثلاثة اشهر.

بعدها انتقل "فوجي اي" بين عمل وآخر حتى استقر أخيراً بمحطة التلفاز تلك، التي يعمل بها حتى الآن.

"أراك قد تأخرت اليوم عن أي يوم مضى"!
هكذا نطق "طوكوايتشي" بهذه الكلمات وهو ينظر إلى ساعة يده.

كانت أشعة الشمس الذهبية المتسللة من خلف أطـراف السـحب المتزاحمة الواطئة عند خط الأفق، قد بدأت تتسلل وتنتشر فـي هـذه اللحظات.

"لأن طقس اليوم على غير ما يرام"!

هكذا رد "فوجي إي" بنبرة توحي وكأنه يحاول تبرير سبب تأخيره عن الموعد هذا اليوم. كان "فوجي إي" يتابع مسار النهر بعينه، ثم أخذ

ينظر بعيداً، ويتأمل مياه الخليج الذي اهتزت صفحته مع نسيم الصباح هناك عند مصب النهر.

كان "فوجي إي" يكاد يوقن بأن زهرة شباب "كانوو" ورفاقه من الطيارين قد سقطت في مكان ما من أرض ذلك البحر الواسع.

كلما وطأ "فوجي إي" بأقدامه أرض هذه الجزيرة من أجل جمع مادة إعلامية ما، يقطع الجزيرة طولاً وعرضاً بحثا عن أى وثائق أو سجلات خاصة بأفراد فرق الطيران الانتحارية (الكامي كازيه)، وفي نهاية الأمر استطاع الوصول إلى بعض متعلقات عدة أفراد منهم. كانت أمواج البحر قد دفعت بها إلى شواطئ الجزيرة، لكنه لم يستطع الوصول إلى أي اثر لـ"كانوو".

كانت شبورة الصباح الصاعدة من النهر قد أخذت تزحف في بطء وهدوء على ضوء عود الثقاب هناك فوق الجرف، فكانت تلك الذكريات تكاد تدفعه إلى الجنون.

كانت شفتا "كانوو" قد تحركتا حركة خفيفة بصوت خفيض مكتوم بكلمات ما، لكنه لم يستطع أبدا أن يجد لتلك الكلمات تفسيراً!

كان "فوجي اي" يسائل نفسه عما إذا كان "كانوو" حقا قد دفعه بيديه، حتى أنه كاد يشك في أنه قفز في ذلك الوقت طواعية ليهرب من الموت في العملية الانتحارية المرتقبة، في مقامرة غير محسوبة.

أجل.. كان هذا التساؤل يلح عليه ويراوده بين وقت وآخر. وعلى حين فجأة واجه نفسه بسؤال كان يتهرب منه:

"ألم ترتب كل ذلك لا شعوريا"؟

شخص "فوجي إي" ببصره في الخليج الصغير، حيث تتصادم الأمواج في هدوء وبطء، بينما ألح عليه هذا السؤال.

أجل. راوده شعور ما، ومن أجل هذا فعلى العكس كان "كانوو" يريد أن يحميه ويبقيه على قيد الحياة.

حاول "فوجي اي" أن يعتصر ذاكرته ليسترجع الكلمات الأخيرة التي سمعها منه. لكن كل الكلمات التي تذكرها لم يكن أي منها يعني شيئا واضحا بالتحديد.

كان كل ما يذكره هو عيون بعض الرفاق التي احمرت، واحتقنت من السهاد والأرق والحنق، وهي تحملق فيه، وهو محمول على النقالة إلى نقطة الإسعاف.

أمام تلك العيون اكتشف نفسه وحقيقته إلى الأبد، فعقد العزم في قرارة نفسه على ان يستمر في تعقب كل ما سجله زملاؤه من أفراد الكتائب الانتحارية قبل أن يموتوا، لكي ينقل للناس ما خبئوه في صدورهم في ساعاتهم الأخيرة، وما قالوه.

آمن "فوجي إي" أن من واجبه كواحد أنقذه "كانوو" من الموت، أن يضع المشهد الأخير لزملائه الذين ماتوا تحت الضوء.. ذلك المشهد الذي استمر لساعات عند الخط الفاصل بين الحياة والموت، كذلك كان يوقن أن كل الوثائق الإعلامية التي صورها كانت من أجل التكفير إلى الأبد عن ذنبه الذي جعله يقامر من أجل الاستمرار في الحياة، ويخذل رفاقه ويتركهم يذهبون إلى الموت بدونه.

كان هناك خاطر يداهمه ويقض مضجعه باستمرار، وهو أن كل ما حدث كان لا يتعدى أن يكون كذبة كبيرة. لقد حادث "فوجي إي" نفسه:

"فقط... لا زلت على قيد الحياة، وكل ما في الأمر هو أني كنت أطارد شبح وسراب "كانوو" لكي أعزي وأسلي نفسي"!

"لقد تأكد "فوجي اي" من بقاء والدي وأشقاء "كانوو" على قيد الحياة في بلدتهم من حوالي عشرين عاما مضت. وبالرغم من أن "فوجي أي" كان يعتبر ذلك المكان أهم الأماكن بالنسبة إليه على الإطلاق، إلا أنه كان المكان الوحيد الذي لم يذهب إليه أثناء قيامه بجمع مواد برامجه الوثائقية عن الحرب، ولم يدرجها في خطط إعداد البرامج.

رأى أم "كانوو" عن بعد، وتأكد من هويتها وبقائها على قيد الحياة، إلا انه لم يقرب منها الميكروفون، ولم يوجه الكاميرا ناحيتها.. ولم يجد الشجاعة كي يفعل ذلك.

على البعد، لمح شيئا ما يتجاوز حاجز الشعاب المرجانية التي يتكسر عليها الموج الأبيض، ويقترب نحوه مسرعا خلال انعكاس الضوء المبهر للبحر. مع ذلك الشيء اقتربت موجة صغيرة مسرعة تمسح صفحة النهر.

"إنها تبكي"

هكذا قال "طوكوإيتشي" فجأة وهو يجذب "فوجي إي" من ذراعه، ويجعله ينظر نحو ظلال الأشجار الباسقة، بينما كان يشير بإصبعه إلى شيء ما.

"الهدوء من فضلكم"؟

هكذا صاح "إيزومي" وهو يضغط على زر التشغيل. أما "فوجي إي" فبعد أن تأكد من إعداد الكاميرا للعمل بدأ يديرها.

صارت الريح الرطبة المشبعة بعبق يود البحر تداعب شعر رؤوس الرجال الثلاثة، وأخذت أوراق شجيرات زهور "وجه الظهر" تهتز بشدة مع الريح، بينما بدأت الزهور البيضاء اللون لتلك الأوراق تعكس الضوء، وفي تلك اللحظة ظهر على البعد مخلوق شفاف اللون يسقط مسرعا، وبشكل رأسي عبر الجرف.

الريح التي ارتدت بعد ارتطامها بأغصان أشجار الصنوبر، نثرت بعض رمال المقبرة المكشوفة بالعراء، لكن ذلك الصوت المعهود لم يُسمع!

بينما كان "إيزومي" يوجه الميكرفون باتجاه الجرف، وجه نظرة ذات مغزى إلى "طوكوشوو"، وقال له بصوت خفيض:

"حانت اللحظة.. ها قد حانت اللحظة"!

أما "طوكوشوو" فقد حاول جاهداً أن يرسم ابتسامةً مصطنعة.

وسط بريق قطرات الندى التي تناثرت من سيقان الأشجار المتمايلة وأوراقها الخضراء المهتزة كانت أشعة شمس الصباح تضيئ الجمجمة.

كانت هناك كتلة سوداء غامضة بجانب العظام النظيفة الناعمة التي شابها لون خوخي باهت.

"ما هذا بحق السماء"؟

هتف "إيزومى" الذي كان مشغولاً بالنظر من خلال عدسة الكاميرا.

رفع "فوجي إي" وجهه دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم أشار بإصبعه إلى شاشة الكاميرا، وكانت شفتاه ترتعشان.. والدماء قد هربت من وجهه. وبعد أن حدق "إيزومي" في وجه "فوجي إي" عاد ليوجه ناظريه إلى شاشة الكاميرا، ثم صاح:

"إنه سرطان البحر"!

ما ظهر على سطح الجمجمة الباكية هو سرب من سرطانات البحر، ذات المخالب البنفسجية اللون.

وهكذا سرت إشاعة في كل جنبات القرية ذلك الظهر تقول بأن الجمجمة الباكية قد اختفت.

كان الصبي "شين" هو من نقل هذا الخبر هو "أكيرا" ورفاقه وهم يبدأون اللهو متخذين مواقعهم تحت أشجار الصنوبر العجوز المجاورة للساحة الرياضية المكشوفة، (وذلك بعد انتهاء وجبة الغداء).

سمع "شين" الخبر بدوره من أبيه الذي عاد من الحقل إلى البيت لأخذ طعام غذائه، وقد صادف هذا التوقيت عودة "شين" إلى البيت لالتقاط بعض أغراضه التي كان قد نسيها هناك.

ترك "أكيرا" ورفاقه اللعب وتحلقوا في دائرة حول "شين" لكي يستمعوا منه إلى الحكاية. ارتفع صوت الهمهمة المملوءة بالقلق من الدائرة لتنتشر خارجها، وبمجرد أن وصل ذلك الكلام إلى أول مجموعة خارج تلك الدائرة، فإذا بعدد من هؤلاء الصبية يركضون مسرعين نحو غرف الدراسة، ويصيحون:

"يا للمصيبة.. يا للمصيبة"!

صار عدد من أفراد الشلة الذين يعلمون تماما بقصة تلك الجمجمة، ومنهم "اوسامو" و"شين" يحدقون بعيونهم الصافية البريئة في وجه "أكيرا" برعب، وكأنهم يطلبون منه تفسيراً لما حدث.

كان "أكيرا" في ذلك الوقت يبدو كما لو كان يحاول كبح دموع على وشك الانفلات من عينيه، وفي اللحظة التالية انطلق يركض مبتعدا عن الجمهرة. كانت تلح على ذهنه في هذه الأثناء المقولة القديمة التي تؤكد بوقوع اللعنات بأشكال مختلفة على رؤوس من يدنسون الأماكن المقدسة المحرمة.

في اللحظة التالية داهمته صرخة:

"تعال هنا"!

كان صاحب تلك الصرخة هو "اوسامو" الذي أمسكه من ذراعه وجذبه نحوه بشده. استرسل "اوسامو" في صياحه:

"أسرع.. فليس هناك وقت"!

لم يكن أمام "أكيرا" سوى أن يتبع رفيقه "اوسامو" الذي يركض أمامه، ويدخل وسط حقل شاسع من قصب السكر تظلله صفوف من أشجار الصنوبر.

وسط حلقة صغيرة من الرفاق الذين ألصقوا أجسادهم ببعضها البعض، صاح "شين" بصوت مرتعش، وكأنه دجاجة ترتعد من البرد:

"ترى هل حدث ذلك بسب ما فعلناه"؟

كاد الرعب يقتل "شين" الذي داهمه خاطر ملح بأنه إذا كانت لعنة الجمجمة الباكية ستحل بأحد فسوف يكون على رأس الجميع، وسينال

الحظ الأكبر من اللعنة والعقاب، حيث أنه كان أسبق من الآخرين في اقتراح العبث بالمقبرة المكشوفة.

"قد يكون مسار الريح قد تغير بسبب تلك القنينة التي وضعناها هناك"

هكذا قال "هيطوشي" الذي كان معروفا بمهارته في طهي الطعام.

وعلى إثر هذه الجملة أومأ بعض الرفاق مصدقين ثم وجهوا أنظارهم نحو "أكيرا".

أما الأخير فقد شعر بالحنق لأنهم يحاولون تحميله مسئولية ما حدث، لكنه عاد ليشك في أن تكون هذه هي الحقيقة، فلم يستطع أن يرد بشيء.

وهنا صاح "اوسامو" ، وهو يدافع عن "اكيرا":
"يا "أكيرا".. ليس هناك ما يستدعي القلق"

كان واضحا من خلال نبرة الصوت أن "اوسامو" كان يسعى في سبيل استعادة وضعه، بعد أن جُرحت كرامته أمام الجميع بسبب "أكيرا" خلال الواقعة الأخيرة، وهنا صاح "شين":

"ليس هناك سوى أن نسرع باستعادة تلك القنينة قبل ان يلحظها رجال القرية"

لكنه بعد أن لفظ بهذه الجملة، شعر بالندم بوجه يجعله يوشك على البكاء لأنه أفصح بشيء كان يجب أن يخفيه.

على إثر هذه الجملة حوّل الجميع أنظارهم عن "أكيرا" و"أوسامو" والتزموا بالصمت.

كانت أوراق وأعواد قصب السكر تتمايل مع الريح العابرة وتصدر أصواتا جافة حادة تلف رؤوس "أكيرا" ورفاقه.

شعر الجميع في تلك اللحظة وكأن عيونا تراقبهم من فوق رؤوسهم وهم يتهامسون بتلك الأسرار، فرفعوا وجوههم نحو السماء دفعةً واحدة!

كان " أكيرا" الوحيد الذي ظل مطرق الرأس يحدق في أوراق أعواد القصب.

إذا كان هناك حديث عن الاتفاق والعهد... فكان من المتفق عليه أن يكون "أوسامو" هو المنوط بمهمة الذهاب لإحضار القنينة. لكن موعد الرهان الذي اتفقوا عليه لم يكن قد حان بعد.. وربما كان المفترض أن يكون "اكيرا" هو المسئول عن القيام بذلك، أحس أنه لن يعود سالما، ولهذا السبب لم يستطع أي من أفراد المجموعة أن ينطق بكلمة.

حين مسح "أوسامو" عرقه المتصبب شعر برغبة ملحة في التبول، فقام بضم فخذية بقوة كي يضغط على عضوه، ثم قال لـ"أ كيرا" الذي ظل مطرق الرأس:

"سأقوم أنا بالمهمة"

لم يجبه "أكيرا". وهنا شعر "أوسامو" بالإهانة، وجرح الكرامة بسبب تجاهل "أكيرا" له، فصار يدور بعينيه بين وجوه رفاقه كي يستمد منهم التشجيع على التحرك.

هنا صاح "كاجو":

"إذا كان الأمر يتعلق بـ" أوسامو" فسوف يفعلها"

كان أثر الكدمات واضحا حول عيني "كاجو" الذي كـــان يشـــبعه "أوسامو" لطماً، ويبدو أنه كان أول من التقط ما كانت تعنيـــه نظـــرات "ايسامو" قبل بقية الرفاق.

بعد أن انتهى من جملته، أومأ الجميع برؤوسهم مصدقين علـــى قوله.

" ترى هل لا يزال ذلك المخلوق على قيد الحياة"؟

هنا عاد الصمت الثقيل المطبق يخيم على مجموعة الصبية، ولكن بعد لحظات قطع ذلك السكون صوت إخراج ريح من واحـــد مـــنهم، فضج الجميع بالضحك، وأخذوا يـــدفعون بعضـــهم بعضـــا بالأيـــادي مازحين. رفع "هيطوشي" إصبعه ولوح به في الهواء ناحية أذن "شين" وكأنه يقطعها، ثم قال:

"لا يمكن أن تكون تلك السمكة على قيد الحياة... فلا شـــك أنهـــا صارت طعاماً لسرطان البحر".

عاد الجميع يضجون بالضحك لمزاح "هيطوشـــي". وهنـــا قطـــع ضحكاتهم صوت "كاجو" محذراً:

"من الأفضل الإقلاع عن الذهاب إلى هناك في ضوء النهار، فقـــد يأتي بعض رجال القرية إلى هنا ويلمحوننا ونحن نقوم بذلك "

لكن "أوسامو" قاطعه:

"إن ما تقوله مفروغ منه ولا داعٍ له.. فسوف أقوم بالذهاب هـــذه الليلة"

بعد أن أنهى جملته نهض واقفاً وهو يطأ الأوراق الذابلة لقصـــب السكر التي افترشت الأرض.

في اللحظة التالية، دق جرس بداية المحاضرات، فحث "أوسـامو" زميله "اكيرا"– الذي كان لا يزال جالساً– على النهوض، فشرع الجميع في الركض بكل قوة وسرعة نحو مبنى المدرسة، وهم يتبعـون أثـر "أوسامو" – لكن "أكيرا" ظل وحده واقفاً شارداً وسط حقـل القصـب، وكأنه أصيب بالإحباط.

في أثناء ذلك، كان الصوت الشجن الحزين، يسري وسط الـريح التي هبت تهز رؤوس عيدان القصب.

"يا زوجي العزيز... سأخلد للراحة مرة أخرى"

هكذا نطقت "ميتسو" بهذه الجملة بعد أن انتهـت مـن مشـاهدة المسلسل التليفزيوني، وتناول وجبة الغداء، ثم توجهـت إلـى الشـرفة ورقدت تستريح على ظهرها. حين هتفت "ميتسو" بزوجها "كيوكيتشي" كان غارقاً بالتفكير في أمر ما. لكن حين لاحظت "ميتسو" حالته تلـك عادت فنهضت من رقدتها وأخذت تحدق في وجهه، فقد لاحظت منـذ الأمس ذلك التغير الغريب الذي طرأ عليه وشعرت بالقلق منه، فقالـت مغلوبة على أمرها:

"آه.. إنه أمر لا يمكن احتماله، سوف اسبقك وأخرج اولاً "

وهكذا حملت "ميتسو" قنينة المياه البلاستكية، وتوجهت إلى الحقـل دون أن تسأله عن سبب انشغاله.

بعد خروجها بفترة من بوابة البيت نهض "كيوكيتشي" من رقدتـه وتوجه إلى الغرفة الخلفية.

كان الأطفال كلهم في مدارسهم، فصار البيـت هادئـاً لا يعكـر صفوه صوت واحد.

مد "كيوكيتشي" يده وفتح درج خزينة الملابس القديمة، والتقط لفافة قماشية كان يخبئها هناك في حرص، وهي القماشة التي لف بداخلها ذلك القلم الحبر الأسود. لكن "كيوكيتشي" حين عاد وراجع نفسه اكتشف إنه لا يتذكر كيف استطاع الوصول إلى المقبرة الصغيرة، كل ما كان يتذكره إنه حين أفاق داخل تلك المقبرة وتحسس جيبه لامست أطراف أصابعه ذلك القلم.

حين أخذ "كيوكيتشي" يتحسس القلم بباطن إصبعه السبابة شعر ببروز ما. لقد كان حرف "**k**" باللاتينية. لم يكن الحرف قد فقد ملامحه وبروزه رغم تلك السنين الطويلة بعد انتهاء الحرب، وحين حاول "كيوكيتشي" العودة مرة أخرى إلى المقبرة لوضع القلم في مكانه الأصلي، كانت درجات السلم الحجرية على الجرف قد اختفت أو تحطمت، وما كان ينتظره هناك هو ذلك الصوت.

إن إدراكه المستمر بأنه سرق شيئاً، من متعلقات ميت كان في حوزته، في لحظات عمره الأخيرة، صار يتبدل من مجرد الشعور بالخزي والعار، إلى شعور بالخوف والرعب من مغبة عبثه بجثة ميت، وذلك مع مرور السنين وطعونه في السن، فقد كانت المقبرة المكشوفة في العراء هي المكان الأخير الذي يتم فيه تطهير جسد الميت، ولذلك فلم يكن مسموحا لأحد أن يشاهد تلك المرحلة التي يذوب فيها اللحم والجلد، وتتحلل كل السوائل المعبأ بها الجسد، لتبقى العظام نظيفة ناصعة، فتبدأ رحلة الميت إلى العالم الآخر، لكي يستمعوا منه إلى حكايته.

عاد "كيوكيتشي" ليتحسس بإصبعه ذلك الحرف المحفور على القلم، فلما طفا على سطح مخيلته مشهد ذلك الشاب، تغيرت معالمه

تماماً، تخيل جلده الرقيق وقد ضرب فيه سرطان البحر بمخالبه البنفسجية، فمزقه تمزيقاً، ينسكب من خلاله اللحم المهترئ على صفحة الرمال البيضاء، بينما تفوح منه رائحة الجيفة العفنة كما لو كان ثمرة تجاوزت مرحلة النضج، وسقطت من خلال قشورها المتشققة، أحس أنه يسمع بوضوح صدى احتكاك مخالب وأصداف سرطانات البحر، تتشابك وتتكالب داخل تلك المغارة الضيقة.

تصور "كيوكيتشي" ذلك العدد الذي لا حصر له من تلك العيون الجاحظة، وهي ترقب أصابعه التي تمتد إلى ذلك القلم لتسرقه، بل أنه صار يتخيل أن أظافر ذلك الشاب (الذي يفترض أنه ميت) صارت تتحرك على حين فجأة، ثم انقلب في رقدته ورفع رأسه.. وبعدها تتسرب صرخة ليس لها صوت من ذلك الفراغ العميق المظلم، وكأن فم الميت قد انفتح عن قصد.. أو كأن الفك الأسفل قد تآكل وسقط عفويا، ثم تنسكب سرطانات البحر الصغيرة مع المقلتين، من تجويف العينين.

تساءل "كيوكيتشي" في نفسه، وتشكك من أن يكون قد تسبب في أن يجعل ذلك الشاب (الذي كان لا يزال على قيد الحياة) فريسةً لذلك العدد الضخم من سرطانات البحر!، أو قد يكون نهوض ذلك الجسد إلى أعلى مجرد خداع للبصر ناجم عن شعوره البالغ بالرعب! لم يكن له سبيل إلى معرفة الحقيقة... لكن ما كان متأكداً منه أنه كلما مر الوقت والزمن، كلما تعاظم لديه الشعور بالخزي والعار والرعب والفزع.

دائماً.. عندما يكون "كيوكيتشي" بمفرده، تراوده تلك الخواطر والذكريات على حين فجأة، فيسمع ذلك الصوت المعهود!

بعد مرور بعض الوقت من تلك الواقعة، سرت شائعة تقـول إن صوت بكاء ونحيب، يصدر من ناحية المقبرة المكشوفة فـي العـراء، تقول تلك الشائعة إن شخصا ما قد وضع تلك الجثة هنـاك، وأن تلـك الجمجمة تراقب أفق البحر بينما تواصل النحيب.

من خلال الكلمات التي تسربت من فم أبيه، وهو سـكران ثمـل، عرف أهل القرية أخيراً أن صاحب تلك الجمجمة هو أحد أفراد الفرق الخاصة الانتحارية، لكن طبقاً لما قاله أبوه، فهو يؤكد إنـه لـم يضـع الجثة في ذلك المكان الحالي أبـداً، كـان يـرجح أن يكـون الجنـود الأمريكيون قد عبثوا بتلك الجثة ونقلوها من موضعها الأصـلي أثنـاء قيامهم بتفكيك درجات السلم الحجرية ونقلها بعيداً.

لكن "كيوكيتشي" لم يكن يعتقد ذلك. كان يعتقـد أن ذلـك الشـاب صار يزحف على بطنه، وهو يحمل فوق ظهره مئات من سـرطانات البحر، حتى لفظ أنفاسه عند ذلك الحجر الذي اسند ذقنه فوقه!

وهكذا بينما كان "كيوكيتشي" غارقاً في أفكاره، وهو يقبض بكفـه على القلم الحبر، لمح كتلة من الغيوم تزحف في السماء عبـر زجـاج النافذة المغبرّ. لكنه عاد أكثر من مرة يقول في سريرته، وهو يحـاول إبعاد هذه الفكرة عن ذهنه:

"أبداً .. أبداً إن ذلك لم يحدث! مع ذلك الجرح العميق المحفور في صدغه، لم يكن من المعقول أن يكون على قيد الحياة وقتها بأي حـال من الأحوال"!

لكن "كيوكيتشي" عندما ذهب لكي يعيد القلم الحبـر إلـى مكانـه الأصلي، رأى بعيني رأسه الجمجمة ترقب الأفق البعيد للبحر.. كما أنه سمعها تبكي!

عمل "كيوكيتشي" باليابان الأم لمدة عشر سنوات متواصلة بعد تخرجه في المدرسة الثانوية. لكنه اكتشف إنه مهما ذهب بعيداً فلم يكن له ان يستطيع الهروب من طيف ذلك الشاب الصغير، ولا من صوت نحيبه.

كان يسائل نفسه دائما:

"لماذا يجب عليّ أن أعاني من مجرد إقدامي على أخذ قلم حبر حقير"؟

لكنه كلما ظن أنه نسي الأمر كان ذلك الصوت يعاوده فجأة ويقض مضجعه.. صوت الريح، يعود ليدرك إنه مهما برر فعلته فإنه لا يستطيع أن يتخلص من رعبه ومخاوفه.

وبعد أن عاد "كيوكيتشي" إلى القرية، وبدأ حياته بها مرة أخرى بدأ يعتل نفسياً، وربما كان المحرك لذلك هو بدء عملية جمع بقايا عظام قتلى الحرب، وإحساسه أن الأمر سوف يتطور إلى كشف هويته الحقيقة لصاحب الجمجمة الباكية، وبالتالي انفضاح سره، واتهامه بالسرقة... ومن هنا صارت إثارة شائعة بالقرية كلها تخيف وترعب الجميع، وتمنع أيا منهم من مجرد التفكير في الاقتراب من تلك الجمجمة الباكية بالذات، لكن الواقع أنه حتى لو كان أمر صاحب تلك الجمجمة قد انكشف، لما كان أحد من أهل القرية سيلوم "كيوكيتشي" عما فعله، بل ربما كان الجميع سينفجرون ضحكا إذا علموا أن هذا كان هو السبب الأساسي وراء اعتلاله نفسياً. ومع ذلك لم يتصور "كيوكيتشي" أبداً أن مخاوفه ستزول مع ذلك السيناريو.

قام "كيوكيتشي" ليلف القلم الحبر مرة أخرى بقطعة القماشــن ثــم دسه في جيبه، وكان يضمر في نفسه أن يذهب الليلة لإعادة القلم إلــى مكانه في تلك المقبرة المكشوفة في العراء. كان لا يهتم بعدم حــدوث أي تغيير أو أي طارئ يذكر، حتى إعادته لذلك القلم، لكن كل ما كــان يعتري ذهنه أن هذه ستكون فرصته الأخيرة.

خرج "أكيرا" من بيته زاعما أنه ذاهب ليعيد كتاباً كان قد استعاره من "أوسامو"، ثم أسرع الخطو في الطريق متجها نحو مصب النهــر.. لم تكن هناك رياح تهب حول المكان، وكان جو الليل الصافي ونسيمه، يبعثان على الشعور بالانتشاء والراحة.

من تأثير ضوء القمر الساطع، لم يكن يبدو بسماء الليل سوى عدد قليل من النجوم يمكن حصرها بسهولة. كان عبق زهور الــــ"إيجــو" يدغدغ أنفه، ومن حين لآخر كانت ترد إلى مسامعه أصــوات أقــدام، وأصوات حشرات تدور وتجول في أعماق الأحراش الجبلية التي تحــد الطريق من الجانبين.

بعد السير لفترة ما، انتهى ذلك السور الحديدي الذي يحد الطريــق من الجانبين، والذي كان يبدو وكأنه تعويذة تقــف حــائلاً دون قفــز الأشجار إلى نهر الطريق، ومن هذه النقطة ظهر ذلك الــدرب الممتــد نحو مصب نهر "إيري غامي غاوا" طويلاً لا تبدو نهايته.

وطأ "أكيرا" بقدميه ذلك الدرب الذي فرشته ذرات الحجر الجيري بشكل مستو، وكأن أحدا ما كنس الدرب ونظفه لتــوه. لمــح "أكيــرا" أمامه فجأة جمجمة صغيرة في حجم جمجمة طفل رضيع تتحرك على الدرب وتقطعه بالعرض، لكنه بعد أن دقق النظر اكتشف أن ذلك مــا

هو إلا صدفة حلزونية بيضاء، حملها على ظهره حيوان من حيوانـــات المحار اسمه "يادوكاري". تذكر في هذه اللحظة إنه رأى نفس المشـــهد منذ زمن بعيد.

شرع حيوان الـ"يادوكاري" وهو يحمل قوقعته في التحرك بطول الطريق مبتعداً عن "أكيراً"، فتبع "أكيرا" أثره خلال الـــدرب الأبـــيض المغطى بسقف من أغصان أشـــجار "المـــانغلوب" المتشـــابكة، وهـــي الأشجار التي كانت تمتد في كثافة على حافة النهر.. بينمـــا يواجههـــا على الجانب الأخر من الدرب أشجار مختلفة الانواع والأشكال تكونت منها غابة كثيفة، وبعـــد الســـير لمســـافة طويلـــة.. خـــرج حيـــوان الـــ"يادوكاري" عن الدرب واختفى خلف أشجار الـــ"مانغلوب". في هذه اللحظة ظهرت حشرة من حشرات الــ"يراع" الفوســفورية المضـــيئة، وأخذت تدور حول "أكيرا" وضوء ذيلها يضئ وينطفـــئ فـــي حركـــة منتظمة، وارتفعت في الفضاء تطير فوق مجموعة من زهـــور "وجـــه الظهر"، ثم اختفت بين اكمتين مرتفعتين أضاءهما ضوء القمر.

بعد أن اقترب "اكيرا" من دغل زهور "وجه الظهر" اتجـــه إلـــى الجرف وبدأ يتسلقه في خفة وسرعة. كانت كل ذرة من ذرات الرمـــال تتلألأ تحت ضوء القمر وكأنها قطع من الكريستال. مد "أكيـــرا" يـــده خلال أعواد نبات "وجه الظهر" الممتدة المتشابكة لكي يضع يده علـــى الحجر الذي يقع عند مدخل المقبرة المفتوحة في العراء، ثم بـــدأ فـــي التسلق.

من هناك ظهرت أمامه بانوراما مفتوحة متسعة من مصب نهـــر "إيري غامي غاوا" حتى الخليج الصغير، وحتى التقاء خط أفق البحـــر

مع السماء، وفي هذه اللحظة شعر أن هذا النهر وهذا البحر كما لو كانا عالماً آخر لم يشهده من قبل، وذلك تحت ضوء القمر المرسل عليهما. وجه "أكيرا" ناظريه نحو تلك الجمجمة الباكية وزجاجة المايونيز الفارغة الملقاة بجانبها. كانت زجاجة المايونيز- التي يبدو أنها انزلقت من فوق الحجر في وقت ما- راقدة على جانبها ولم يتبق بداخلها سوى كمية قليلة من الماء.

كان يبدو أن كمية الطحالب والفطر قد نمت داخل الزجاجة، فقد كانت هناك رائحة عطنه فجة، تفوح من تلك الطبقة السميكة الخضراء التي كست الجدار الداخلي للزجاجة البلاستيكية، وكان الماء عكراً راكداً.

أراد "أكيرا" أن يستطلع أمر سمكة الـ"تيرابيا" الصغيرة التي تركوها هناك داخل الزجاجة، لكنه تردد في أن يقوم برج الزجاجة من اجل أن يبحث عن السمكة خشية أن تفوح رائحة عطنه أشد من الرائحة الحالية، خاصة وهي داخل هذه الحفرة الضيقة التي لا تسمح بانتشار الرائحة مع الأثير. مد "أكيرا" يده نحو الجمجمة الباكية، وأخذ يتفحص بقايا العظام والملابس والحذاء العسكري المتناثرة بجانبها. لم يكن يشعر بأي خوف، بل إن ما أستحوذ على مشاعره هو نوع من الإحساس بشوق غريب إلى هذه العظام التي ظلت أكثر من أربعين عاماً تتطلع إلى ذلك البحر الواسع الذي يقع باتجاه الشمال. وعندما مسح بإصبعه قمة رأس الجمجمة استشعر برودة لذيذة سرت خلال أطراف أصابعه. وأثناء مروره بإصبعه على الجمجمة وعلى العظام التي تآكلت بفعل رياح البحر بشكل أملس مستو، أحس بوجود تقعير واضح. نظر "أكيرا" إلى الفجوة الغائرة الموجودة أعلى الصدغ الأيسر للجمجمة. كانت الفجوة غائرة لكن قطرها كان صغيراً.

أخذ يتحسس بإصبعه دوران الفجوة الصغيرة فانزلقت العقلة العليا لإصبع السبابة داخلها. في هذه اللحظة ادرك "أكيـــرا" ســـبب صـــدور صوت البكاء من تلك الجمجمة. أجل.. من مرور الريح من خلال تلك الفتحة الصغيرة. كانت حقيقة الصوت تأتي من خلال نفاذ الريح خلال فتحتي العينين، ويتردد صداه داخل تجاويف الجمجمـــة، ثـــم خروجـــه أخيرا من تلك الفتحة للجرح الغائر بعظمة الصدغ العليا.. وذلك الجرح الذي أودى بحياة الشاب ليصدر في النهاية ذلك الصوت الباكي.

حمل "أكيرا" الجمجمة بين يديه ورفعها لأعلـــى، وعنـــدما عـــاد ليشرع في وضعها مرة أخرى فوق الرمال، شعر بألم فظيع في أصابع يديه من أسنان حامية أطبقت عليها!

صرخ "أكيرا" صرخة عالية، وهو يطيح بذراعه بعيـــدا. كانـــت مخالب احد سرطانات البحر التي ظهرت من خـــلال تجويـــف عـــين الجمجمة تطبق عليه، وفي لحظة تخلصه من الجمجمة بإلقائهـــا بعيـــدا بكل قوته.. كان ظفر إصبع السبابة مع جزء من اللحم قد انتزع. أمـــا الجمجمة فقد هوت بسرعة في خط مستقيم نحو أسفل الجـــرف. ومـــع ذلك السقوط السريع تردد في جنبات الفضاء صـــوت حـــزين ابتعـــد مسرعا، وبعدها بلحظات كانت شظايا عظام الجمجمة البيضاء تتنـــاثر في جميع الاتجاهات وسط الظلام مثل كرة من كرات الألعاب الناريـــة المتفجرة.

أخذت الدماء الحارة تقطر من طرف إصبعه الجريح وتنحدر على بنطاله القصير، ثم على فخذه العاري. قبض "أكيرا" بقوة بقبضـــة يـــده اليسرى على الإصبع، ثم ضم يديه إلى صدره متألمـــا، وتكـــور فـــي

الأرض جالسا على ركبتيه داخل المقبرة المكشوفة، واخذ يحاول جاهداً حبس صرخات الألم، فصار يئن أنينا محموماً حتى فــوجئ بصـــوت شخص ما يناديه باسمه! اندهش "أكيرا" لسماعه ذلــك الصـــوت فــرد متسائلاً:

"أبى" ؟

ظهر وجه أبيه أمامه، وظل يحدق فيه مشدوها. أجل. ان من كان يقف أمامه الآن هو أبوه "كيوكيتشي" بشحمه ولحمه، وهو يفتح عينيـــه عن آخرهما، والعرق يتصبب من وجهه، بينما كان متشبثا بقوة بأعواد نبات "وجه الظهر" الطويلة المتشابكة، والتي بدت وكأنها ستتمزق مـــن ثقل جسد "كيوكيتشي" المتعلق بهما.

فجأة، تناثرت قطرات من المـــاء مـــن داخـــل قنينـــة المـــايونيز البلاستيكية لتنتشر على الرمال، وهنا تمتم "أكيرا" كرد فعل تلقائي:

"إنها حية".

رغم أن سمكة الـــ"ثيرابيا" هذه كانت مهترئة هنا وهناك حتـــى أن عظام عمودها الفقري كانت مكشوفة عند الـــذيل، بعـــد أن زال عنهـــا اللحم والجلد، إلا أنها لا زالت على قيد الحياة وتصارع المـــوت. لقـــد انقلبت تلك السمكة المشوهة بحركة قوية سريعة لتصير على ظهرهـــا، وبحركتها العنيفة تلك تناثر الماء العفن على الرمال وكأنها تسخر مـــن "أكيرا" الواقف مشدوها أمامها مع أبيه.

كانت طائرة الركاب ترتفع عاليا في السماء وهي تـــدور ناحيـــة اليسار، وتحتها ذلك الجرف الشاهق المطل على البحر أقصى الطـــرف الجنوبي لجزيرة "أوكيناوا". ومن مقعده عبر زجاج النافـــذة المجـــاورة

أخذ "فوجي إي" يتأمل الجزيرة التي أحاطت حوافها الأمواج البيضاء التي تتكسر على الشعاب المرجانية، لكنه ما أن عاد وأسند رأسه إلى ظهر مقعده حتى أغمض عينيه في هدوء. وفي أعماق ظلمة عينيه كان يتخيل مشهد الجزيرة وهي تختفي شيئا فشيئا، وكأنها تتكور وتنكمش. وفي اللحظة التالية تخيل "فوجي إي" الجزيرة قد تحولت إلى كتلة على شكل حلقة مستديرة صغيرة محاطة بالأمواج ذات الزبد الأبيض، وصارت تهوي بسرعة شديدة إلى أسفل في خط رأسي، خرجت من فم "فوجى إى" صرخة قصيرة لا إرادية، فانتفض من مكانه.. إلا أن حزام الأمان المربوط حول خصره منعه من ذلك، وجعله يفيق من إغفاءته المفاجئة. ولما كان "أيزومي" الذي كان يتصفح مجلة فردها فوق فخذيه- قد انزعج من تلك الحركة المفاجئة، فقد سأله:

"ماذا بك؟ هل أنت على ما يرام"؟

رد عليه "فوجي إي"، وهو يتململ في جلسته:

"أبدا.. لا عليك"

ثم ضغط على جفنيه اللذين أحاطت بهما هالة سوداء، ليغلقهما بأصابعه، كانت ذكريات الليلة الماضية تراوده بشكل متقطع، ثم تمتم قائلاً "كانوو"! كان "فوجى إى" يسرع الخطو خلال الطريق المؤدي إلى مصب نهر "ايرى غامي غاوا"، بينما ظل يردد اسم "كانوو" مراراً في سره،، كانت شائعة اختفاء الجمجمة الباكية قد سرت في جميع أرجاء القرية، أثناء فترة الظهر، عاد "فوجي إي" إلى الفندق الشعبي الصغير الذي يقيم به ليأخذ قسطاً من الراحة، لكنه ما أن دخل مطعم الفندق مع "إيزومي" حتى لاحظ تغيراً ملحوظا على سلوك صاحب الفندق وزوجته، وعندما كانا يسيران بشوارع القرية لاحظا حدة النظرات الموجهة إليهما من أهالي القرية. أتخذ "فوجي أي" قراراً بالانسحاب

من هذه القرية مؤقتا، والذهاب إلى مدينة "ناها"، وكان ينــوي مراقبــة أحوال القرية. في نفس الوقت الذي يتابع فيه الاتصال بمكتب شــركته الرئيسي، للسماح له بمد فترة التصوير وجمع المادة الوثائقية. لكنه قبل ذلك كان يريد أن يستوضح شيئا واحداً.

مع حلول الليل خرج "فوجي إي" بمفرده، كــان يريــد أن يتأكــد بعينيه من وجود الرفات المسجاة بالمقبرة المكشوفة، وكذلك المتعلقــات الخاصة بتلك الرفات. كان يشعر بأنها المرة الأخيرة التي ســيتاح لــه فيها أن يقوم بجمع مواد وثائقية إعلامية عن القوات الانتحاريــة أثنــاء معركة "اوكيناوا".

فقد "فوجي اي" ثقته بنفسه، وفي قدرته على التغلب على الكثيــر من الصعوبات والعقبات التي تغلب عليها خلال إعداده لعــدة بــرامج حول هذا الموضوع.

زار "فوجي أي" جزيرة "أوكيناوا" و"هيروشيما" ومنــاطق القتــال الضاري بجزر جنوب المحيط الهاديء والتقى بعدد من شــهود تلــك الأحداث، والتقط بالكاميرا العديد من الجروح التي خلفتها الحرب. لــم تكن مشاعره قد تغيرت أبدا من منطلق أنه حتى لو استطاع أن يقــوم بإعداد برنامج حول هذا الموضوع مرة واحدة في السنة، مثل مراســم العيد الصيفي السنوي الخاص باستقبال أرواح الموتى، فسوف يكــون هذا أمراً ذا معنى كبير وعميق. ومع ذلك أصبح يشعر أنه لم يعد قادراً على الهرب من إحساسه بالإرهاق الشديد الذي نشب بأظافره في جسده وروحه. كان صوت حفيف أوراق أشجار الــــ"مــانغلوب" المتكاثفــة يتردد صداه في الأرجاء تحت ضوء القمر، بينما كــان ينحــدر عبــر الدرب المتجه من الطريق الإسفلتي إلى مصب النهر. تحت خطواتــه

المسرعة القوية أخذت تتناثر ذرات تراب الحجر الجيري. استمر "فوجي اي" في سيره بينما هاجمته رائحة يود البحر من الاتجاه المعاكس من الدرب، وفجأة باغته صوت "كانوو" هامسا في أذنه:

"ألا تشعر بالإحباط "؟

في هذه اللحظة طفا على ذاكرته وجه "كانوو" الملتوي من الألم على وهج شعلة عود الثقاب!

إلا أن "فوجي إي".. رغم الارتفاع الكبير فإنه لم يصب بشيء! يعود الفضل في ذلك إلى الطبقة الطينية السميكة المتراكمة بقاع النهر.. كان "فوجى إى" يقف مشدوها وهو غاص في الطين، ومستوى ماء النهر يصل حتى رقبته، وكان يرفع رأسه إلى اعلى ويحملق في الجسر المعلق فوقه. شعر بشيء ما يصطدم بساقيه وخصره. أخذ ذلك الشعور يتحول إلى إحساس بالألم، ويتزايد بشكل سريع، حيث كان ما يتخبط به هو سرب كبير من اسماك الـ "ثيرابيا" الكبيرة الحجم تسبح بسرعة في اتجاه معاكس لتيار النهر، مدفوعة بقوة مياه المد القادمة من الخليج، وكانت ذيول الأسماك وأشواك ظهرها القوية الصلبة تكيل له الخدوش والجروح تباعاً.

شعر مع الألم الرهيب، وكأن هذا السرب من الأسماك يقبع هناك بانتظاره فترة طويلة من الزمن منتظرا فرصته للانقضاض عليه، وقضم لحم جسده بعد أن فرغ من قضم لحوم أجساد رفاقه في السلاح، وحفظ طعم ذلك اللحم في كل خلاياه!

أخذت اسماك "الثيرابيا" تواصل الارتطام بجسد "فوجى إى" وتحتك خياشيمها وأجنحتها الشوكية الصغيرة الصلبة به، وتتقدم في طريقها صانعة من حوله دوامات صغيرة كثيرة لا حصر لها. لم يكن

"فوجي اي" بالنسبة لتلك الأسماك ذات الطبيعة الاستوائية سوى عـــائق من تلك العوائق الطبيعية التي تقف في طريق تقدمها بمجرى النهر.

استطاع "فوجى إى" أخيراً أن يخرج من النهـــر إلـــى الشـــاطئ، وسلك طريقه إلى فندقه الصغير، وبعد أن أخذ دشـــا أيقـــظ مرؤوســـه "إيزومي". وصل الاثنان إلى مدينة "ناها" مع انتصاف الليـــل بســـيارة أجرة.

بينما كانا ينتظران موعد أول طائرة تقلع في الصباح الباكر، اخـــذ الاثنان يمضيان الوقت بالانتقال من حانة إلى أخرى، يتجرعان الخمر، كما قضيا بعض الوقت داخل مقهى يعمل على مدار الساعة.

شعر "فوجي اي" أن ما حدث منذ عدة ساعات، كما لو حدث لـــه منذ زمن بعيد، وعندما فتح عينيه ليحدق فيما حوله، نظر إلى الخـــارج عبر زجاج النافذة، كان خيال الجزيرة قد اختفى تماماً مع الغيوم التـــي كانت تخيم على ذلك الزجاج، وبدأ يتساءل في سريرته:

"ترى هل استطاع "فوجى إى" أن يرى منظر الجزيرة."

هنا هبت ريح مفاجئة فانطفأت شعلة الثقاب. ومع ذلك الانطفـــاء المفاجئ اخذ الخيال الأبيض الباهت يبتعد تدريجيا من وجه "كانو".

بدأ "فوجي إي" يعدو بكل قوته كي يلتقط الجمجمة التـــي ظهـــرت أمام عينيه وهي تهوي بينما كان يصيح باسم رفيقه:

"كانوو" .

في اللحظة التالية، اخترق صدره إحساس موحش حزين.

شعر "فوجي إي" بأن أخر صوت سمعه من فم "كانوو" على ضوء شعلة الثقاب المتراقصة كان هو نفسه ذات الصوت. مـــد "فـــوجي إي"

كلا ذراعيه عن آخرهما حتى أن أطراف أصابعه لم تكن تبدو بوضوح وسط الظلام، لكن تلك الجمجمة الباكية البيضاء كانت قد تحطمت وتناثرت أمام عينيه.

مال "فوجي إي" بجسده إلى الأمام، محدقا في شظايا الجمجمة المتناثرة، هنا سمع شخصا ما يناديه باسمه لاهثا.

كان الصوت يصدر من مكان ما فوق رأسه، وعندما رفع رأسه لأعلى، كي يبحث عن مصدر هذا الصوت لمح تحت ضوء القمر وجه رجل يتشبث بأعواد نبات "وجه الظهر" الطويلة الملتفة حول بعضها، وهي الأعواد التي كانت تتدلى من أغصان شجرة ضخمة، وبجانب صاحب ذلك الوجه شاهد صبياً يقف في وضع الخشوع في الدعاء، يضم كفيه أمام صدره. عاد "فوجي إي" لينهض على قدميه، وهو يرمق شظايا الجمجمة المتناثرة. كانت الجمجمة التي ظلت لسنوات طويلة هدفا مستمراً للرياح والامطار وقد تبعثرت متفتتة وهي تتلقى أشعة القمر وتعكسها.

إن نوعا من الغضب أو الحزن أو ما شابه ذلك من المشاعر لم يتفجر داخله أبدا، حتى أنه شعر في ذلك الموقف بأن صاحب تلك الجمجمة سواء كان "فوجي إي" أو غيره من رفاقه، قد يكون أكثر سعادة بهذه النهاية بدلاً من أن يظل معرضا لتسلية الناس، وهو مستمر بالبكاء. وجد "فوجي إي" نفسه يعود أدراجه ليسلك نفس الطريق الذي جاء منه، وعندما وصل إلى مكان الجسر المعلق شرع في خلع سترته المخضبة بالطين وطوح بها بعيداً، لكنه فقد توازنه، ولم يكن هناك من حوله من يقوم بالإمساك به، فسقط إلى النهر الذي يقع أسفل الجسر.

وصل إلى هذا المكان ليقف وحده في العراء، يطالع ذاك الجرف، وحتى "كيوكيتشي" الذي كان معروفاً بشجاعته وجسارته شعر بنوبة من الرعب تجتاح جسده لبضع لحظات، وهو ينظر إلى مصب النهر وسط ظلمة الليل حيث تبدو تلك المقابر القديمة التي حُفرت على ضفتي النهر، وكانت تلك الجمجمة الباقية البيضاء تبدو واضحة دائما داخل ذلك التجويف المربع المظلم.

أدرك "كيوكيتشي" إنه لن يعود ليرى ذلك المشهد، ولن يعود ليسمع صوت تلك الرياح مرة أخرى.

كانت شظايا الجمجمة خفيفة الوزن، وكان حين يرفع القميص الملفوف إلى اعلى يسمع صوت تلك الشظايا تحتك ببعضها، ويتحسسها أحيانا من خلال قماش القميص.. كان يشعر بها تتفتت إلى قطع صغيرة.

حث "كيوكتشي" ابنه على السير:

"لنعد أدراجنا"

ثم شرع في السير أمامه متجها نحو مساكن القرية.

حين بدأ يطأ الجسر المعلق كي يعبره، لمح "فوجي إي" أسفل الجسر، وهو يقف مستمراً مغمض العينين، وهو غاص في النهر حتى صدره.

لم يكن النهر بذلك العمق الذي يهدد بالغرق، كما أنه لم يتعرض مطلقاً لخطر الغرق من قبل.

حين عاد إلى بيته القى بقميصه المكور داخل مخزن الأمتعة ثم ذهب ليستحم. بعد ذلك نادى على إبنه "أكيرا"، وقام بدعك ظهره

وتحميمه. أما "أكيرا" الذي كان يظن أن غضب أبيه سيصب عليه لا محالة بين لحظة وأخرى، فقد ظل يعاني من الارتباك والرهبة. في تلك اللحظات كان "كيوكنتشي" يساعد إبنه في الاستحمام، وينظر إلى جسده الذي لم يكن قد اشتد بعد، أخذ يعود بذاكرته إلى الوراء، ليدرك أنه حين التقى بذلك الجندي لم يكن قد أشتد عوده، وانه كان فتياً نضراً صغيراً.

بعد أن خرج من الحمام صار يتجول بين خمارة وأخرى في شوارع القرية حتى عاد أخيراً إلى البيت قبل بزوغ الفجر، وبالرغم من إفراطه في الشرب، ألا أنه لم يكن يشعر بالثمالة أو بالرغبة في النوم.

دخل الحمام مرة أخرى، وغسل عرقه بالماء ثم أخرج قطعة القماش الملفوفة وبداخلها قلم الحبر الأسود من جيب بنطاله الذي كان قد خلعه، ثم عاد إلى غرفته وبدل ملابسه.

بعد ذلك راوده ذلك الخاطر، فشعر بألم شديد ينخر أعماق جسده، في نفس الوقت الذي شعر فيه بدفعة من الغضب المتأجج تتفجر من داخله.

لكنه عاد ليؤكد لنفسه بان الأمور لم تنته بعد؛ أجل.. ولا واحد من تلك الأمور.

هكذا أخذ "فوجي إي" يحادث نفسه وهو يقاوم شعوراً عميقا بالإرهاق والتعب. كان يدرك بأن شيئا ما- على العكس- يشرع في البدء، لكنه لم يستطع أن يفسر بالتحديد ماهيه أو ملامح ذلك الشيء الذي يوشك على البدء.

شعر شعوراً قوياً بأنه من الواجب عليه أن يقـوم بزيـارة بيـت "كانوو" القديم، حتى لو كان والداه قد رحلا عن الدنيا بالفعل، وأن عليه أن يواجه بجسده العاري المجرد كراهية وضغينة زملائـه الفـدائيين كلهم، الذين رحلوا عن هذه الدنيا مهما كلفه ذلك من ثمن.

هكذا حادث نفسه، واقنع نفسه.. حتى لو انتهت مغامرته تلك بـأن يعود صفر اليدين وبلا نتيجة أو عائد.

وبعد ذلك.. ظهرت الجزيرة مرة أخرى من خـلال ثغـرة فـي السحب المتكاثفة.

أجل.. بدت تلك الثغرة في عينيه كما لو كانت دغلا من الأعشاب البحرية آكلة الحشرات، تفتح فاهها الغائر وسط ذلك البحـر الواسـع الداكن الزرقة.
كان البحر في الفجر المظلم هادئاً ساكناً.

خلع "كيوكتشي" صندله المجدول بالخوص وألقـاه علـى رمـال الشاطئ، ثم شمر بنطاله إلى أعلى الركبتين، ثم رفع يده اليمين بقميصه الذي لف به شظايا عظام الجمجمة وبـدأ يسـير خائضـاً الموجـات المتتابعة التي تزحف نحوه.

في الليلة الماضية، وبعد أن نزل "كيوكيتشي" عن الجـرف قـام بجمع شظايا الجمجمة في قميصه الذي خلعه، وقد صاح فـي "أكيـرا" الذي شرع في مساعدته في ذلك. وبعد ان انتهى مـن التقـاط حتـى الشظايا الصغيرة التي كانت في حجم أكبر قليلا مـن ظفـر إصـبعه البنصر، أخذ يخبط بقدميه في عنف التربة التي تراكمت عليها أكـوام من أوراق الأشجار المتعفنة العطنة، والتي كانت تلمع تحـت ضـوء

القمر، ثم ربط القميص حول يده اليمنى، ورفع تلك اليد عاليا في الهواء، وعندما رفع وجهه ينظر نحو تلك الفتحة المربعة الطويلة المستعرضة بالجرف، أدرك خواءها.

كان "كيوكيتشي" يخرج كثيراً من الحانة بلا هدف، بعد أن يصاب بالثمالة، ليجد قدميه تقودانه دون وعي إلى ذلك الجرف.

بينما كان يستحم بالماء البارد استيقظت زوجته "مستو"، وأعدت له طبقاً من الأرز المنقوع في الشاي الأخضر. وبعد أن خرج من الحمام قام بالتهام محتويات الطبق دون أن يلفظ كلمة واحدة.

ثم التقط قميصه الملفوف من داخل خزانة الأمتعة، وانطلق باتجاه البحر. كان الموج يغسل قصبتي ساقيه، ويبلل ركبتيه. وكان الشاطئ يقع في الناحية الشرقية بعد الخروج من الخليج عند مصب نهر "إيري غامي غاوا". ذلك الشاطئ الذي خلا من أي مظهر من مظاهر العمران يمتد لمسافة تربو على الكيلومتر، وأشجار الموز البري والأعشاب المتكاثفة تحت الجرف تصنع حزاما داكن الخضرة. وكان خط أفق البحر مفتوحاً على مرمى البصر باتجاه الشمال، وكانت الغيوم المتراكمة التي اختلطت ألوانها بين الأحمر والذهبي تصعد في السماء التي اكتست بلون لبني باهت، وتنبئ ببدء يوم آخر شديد القيظ.

ظل "كيوكيتشي" يخوض الأمواج غير عابئ بابتلال بنطاله وهو يحدق في البحر المفتوح أمامه.

فك "كيوكيتشي" قميصه المعقود، والتقط الشظايا البيضاء. وحين قبض عليها سمع أصواتها وهي تتفتت، وفي اللحظة التالية قام بنشرها فوق صفحة الماء.

اختلطت شظايا العظام بالرمال المتحركة المتداخلة تحت قدميه في عمق الماء، ثم صارت أمواج الجزر تحملها وتمضي بها بعيداً لكي تنشرها هنا وهناك فوق صفحة البحر. وبعدها كانت الأمواج تعود لتزحف نحوه في دفعات متلاحقة بينما تترقرق فقاعتها مع الأضواء الأولى للفجر. قام "كيوكيتشي" بطي قميصه ثم ربطه بالحزام، اخرج قلم الحبر من جيبه. هذا القلم الحبر الذي لم يستخدمه ولا مرة واحدة. منذ التقطه من سنوات بعيدة، ولم يعد يبدو في ناظريه تحت ضوء الشمس سوى قلم تعس بائس قديم الشكل.

رغم أنه ألقى به بعيداً بكل قوته.. إلا أن المسافة التي طارها القلم لم تتعد أكثر من ثلاثين متراً!

حين خرج إلى الشاطئ، كانت الرمال قد بدأت تدب فيها سخونة الشمس، ومن اتجاه الغابة المتكاثفة فوق الجرف كانت تتوارد أصوات أزيز الجراد الصيفي الأسود. ظل "كيوكيتشي" يقطع الشاطئ الرملي وهو يمسك الصندل الخوص بيده، بينما بدأ يتصبب عرقاً تحت ظلال الأشجار، شرع في اختراق دغل الأعشاب البرية متجها نحو الطريق الإسفلتي. توقف "كيوكيتشي" فجأة واخذ يجول بعينيه، فرأى أطراف الأعشاب البرية ذات الأشواك المدببة تتمايل مع الريح. وهناك على البعد، كانت الأمواج التي تتكسر على قمم الشهاب المرجانية تتلألأ بيضاء اللون وسط زرقة البحر المتزايدة مع سطوع الشمس. وخلال أصوات ازيز الجراد الأسود التي يتردد صداها مع الريح التي تهب

من اتجاه البحر، استطاع أن يميز- مــرة أخــرى- ذلــك الصــوت المعهود!

كان ذلك الصوت المعهود الذي تحمله رياح البحر خافتاً ضــعيفاً متقطعاً، يتخلل مسام صدر "كيوكيتشي" وينفذ منها إلى تجاويف رئتيه.

ارتفع صوت الأمواج، ومع هذا فلم يتلاش صوت الريح أبداً.

انتهت

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET